زين الدين الجبعي العاملي (الشهيد الثاني)

[٩١١-٩٦٦ هـ]

التنبيهات العلية

على وظائف الصلاة القلبية

تحقيق

صفاء الدين البصري

عضو مجمع البحوث الإسلامية

بنیاد پژوهشهای اسلامی

آستان قدس رضوی

بسم الله الرحمن الرحيم

التنبيهات العلية

على وظائف الصلاة القلبية

تأليف

زين الدين الجبعي العاملي (الشهيد الثاني)

[٩١١ - ٩٦٦ هـ]

تحقيق

صفاء الدين البصري

عضو مجمع البحوث الإسلامية

الكتاب : .... التّنبيهات العليّة على وظائف الصّلاة القلبيّة .

المؤلّف : .... زين الدّين الجبعيّ العامليّ (الشّهيد الثّاني) .

المحقّق : .... صفاء الدّين البصريّ .

الخط والإخراج الفنّي : .... الحافظ علاء البصريّ .

النّاشر : .... مجمع البحوث الإسلاميّة ص. ب ٣٦٦-٩١٧٣٥ مشهد - إيران .

التّاريخ : .... الطّبعة الأُولى : ١٤١٣هـ ق ، ١٣٧١هـ ش .

العدد : .... ٣٠٠٠ نسخة .

الطّبع : .... مؤسّسة الطّبع والنّشر التّابعة للآستانة الرّضويّة المقدّسة .

تمهيد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنام، وخير خلقه، سيّدنا ونبيّنا محمّد المصطفى صلّى الله عليه وعلى أهل بيته الطّيّبين الطّاهرين المعصومين المكرّمين المنتجبين، وبعد:

فإنّ لكل أمرٍ عظيمٍ عماداً، وعماد هذا الدّين: الصّلاة؛ إذ عليها بُني الإسلام، وهي نور المؤمن، والميزان الّذي من أوفى به استوفى، وقربان كلّ تقيّ، وهي الّتي تسوّد وجوه الشّياطين، وتحصّن من سَطَواتهم، وبها يتميّز المؤمن ويتّصل بربّه وخالقه الأعلى، وقد أفلح من أقامها خاشعاً لله مخلصاً له الدّين، وقد خاب من أضاعها واستخفّ بها، واتّبع هواه، وأرضى غرائزه وشهواته.

وهي منهاج الأنبياء وآخر وصاياهم، ووجه الدّين، وأحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجل، وفيها مرضاة الرّبّ، وبها تُقبل الأعمال وتُردّ، وهي أفضل القربتين، وخير العمل، وأفضل الأعمال بعد المعرفة بالله، وهي الّتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكفّارة لما بينها من الكبائر، وهي الحسنات الّتي يذهبن السّيّئات، وهي الّتي من أقامها ــ بشروطها ــ انصرف عنها كيوم ولدته أمّه، وهي أوّل ما يُسأل العبد عنه يوم القيامة ويُحاسب به[١]

---

(١) انتزعنا هذه المعاني بأجمعها من أحاديث النّبيّ (ص)؛ انظر: نهج الفصاحة: ٣٩٦، وميزان الحكمة ٥: ٣٦٥ ــ ٣٧٤ وغيرهما.

معنى الصّلاة :

الصّلاة لغة : الدّعاء والاستغفار، قال الله تعالى : «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ»(١) وقال : «وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ»(٢). يعني : دعاءه. وقال تعالى : «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً»(٣) أي : يترحّمون.

وأمّا قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ»(٤) فمعنى الصّلوات هنا : الثّناء عليهم من الله تعالى.

وفي الحديث عنه صلّى الله عليه وآله : (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن كان مفطراً فليَطعَم ، وإن كان صائماً فليُصلِّ)(٥) أي : فليدْعُ لأ رباب الطّعام بالبركة والخير(٦)

وقد صرّحوا بأنّ لفظها ــ أي : الصّلاة ــ من الألفاظ المشتركة ، فهي من الله : الرّحمة ، ومن الملائكة : الاستغفار ، ومن الآدميّين : الدّعاء . وقال ابن الأعرابيّ : الصّلاة من الله الرّحمة ، ومن الملائكة والإنس والجنّ : القيام والرّكوع والسّجود والدّعاء والتّسبيح ، والصّلاة من الطّير والهوام : التّسبيح(٧) .

وأمّا شرعاً ؛ فقد اختلف الفقهاء في تعريفها ، وقلّ أن يخلو تعريف منها عن

---

(١) التّوبة : ١٠٣ .

(٢) التّوبة : ٩٩.

(٣) الأحزاب : ٥٦.

(٤) البقرة : ١٥٧ .

(٥) سنن التّرمذيّ ٣: ١٥٠ حديث ٧٨٠، سنن أبي داود ٢: ٣٣١ حديث ٢٤٦٠، مسند أحمد ٢ : ٥٠٧، سنن البيهقي ٧: ٢٦٣.

(٦) لسان العرب ١٤ : ٤٦٤ (صلا).

(٧) لسان العرب ١٤ : ٤٦٤ (صلا).

الخلل، قال العلاّمة الحلّيّ «رحمه الله»: إنّها عبارة عن الأفعال المخصوصة المقترنة بالأذكار المعيّنة، وقد تجرّد الأفعال عن الأذكار؛ كصلاة الأخرس وبالعكس كالصّلاة بالتّسبيح[١].

وقال الشّهيد الأوّل «قدّس سرّه»: هي أفعال مفتتحة بالتّكبير، مشترطة بالقبلة للقربة[٢]. وقد أورد المحقّق الكركيّ ـ في شرحه لقواعد العلاّمة ـ على هذا التّعريف إشكالاً؛ فقال: قد أشرنا إلى ما يَرِدُ عليه طرداً وعكساً في المقدّمة الّتي وضعتها في الصّلاة، ثمّ زدت فيه ونقصت، فصار إلى قولنا: أفعال مفتتحة بالتّكبير، مختتمة بالتّسليم للقربة. ثمّ قال: وأنا زعيم بأنّه أسلم ممّا كان عليه، ولا أضمن عدم ورود شيء عليه[٣].

ولهم فيها تعريفات أُخرى، أعرضنا عن ذكرها هنا؛ روماً للاختصار.

وجوب الصّلاة:

الصّلاة واجبة بالكتاب والسّنّة والإجماع، قال الله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ»[٤] وقال: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ»[٥] وقال: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ»[٦] وقال: «ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا»[٧] وقال: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ»[٨] وقال: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا»[٩] إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم.

---

(١) منتهى المطلب ١ : ١٩٣.

(٢) الذّكرى : ٧.

(٣) جامع المقاصد ٢ : ٦.

(٤) البقرة : ١١٠.

(٥) البيّنة : ٥.

(٦) الإسراء : ٧٨.

(٧) الحج : ٧٧.

(٨) البقرة : ٢٣٨.

(٩) النّساء : ١٠٣.

وأمّا سنّة؛ فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، أنّه قال: (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وصيام رمضان، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً)[١].

وعن أبي بصير، قال: قلت لأ بي جعفر [الباقر] عليه السّلام: أخبرني عمّا فرض الله تعالى من الصّلوات؟ فقال: (خمس صلوات في اللّيل والنّهار)[٢].

وأمّا إجماعاً؛ فلا خلاف بين المسلمين في وجوب خمس صلوات متكرّرة في اليوم واللّيلة[٣].

وقد استعمل القرآن الكريم في الأمر بالصّلاة وفي بيان وجوبها تعبير «أقيموا» ولم يستعمل عوضه تعبير صلّوا أو أدّوا الصّلاة أو أتمّوا الصّلاة، حتّى صار تعبير الإقامة يُطلق حيث يأتي الحثّ على أداء الصّلاة. وهو غاية في البلاغة ودقّة المعنى، فإنّ الأمر بالصّلاة بصيغة «صلّ» ينصبّ فيه الوجوب على تحقيق الصّلاة نفسها، من غير ملاحظة شيء آخر، أمّا الأمر بها بصيغة «أقم الصّلاة» فإنّه ينصبّ فيه الوجوب على إقامتها وهي أداؤها مع ملاحظة شيء آخر معها، وهو الالتفات إلى فلسفتها والهدف الرّوحي والمعنوي منها، لا مجرّد القيام بأفعالها البدنيّة وأدائها مادّيّاً.

وبعبارة أُخرى: إقامتها يعني تكليف النّاس أن يقيموا هذه الفريضة ويجعلوا لها وجوداً اجتماعياً حيّاً؛ يتفاعلون معها على أساس أنّها ــ الصّلاة ــ جزء أساسيّ من حياتهم اليوميّة. وهذا المعنى ــ كما هو واضح ــ ملحوظ فيه هدف تربويّ سامٍ على صعيد المجتمع لا الفرد فحسب، وهو مراد الشّريعة المقدّسة.

---

(١) صحيح البخاريّ ١ : ٩، صحيح مسلم ١ : ٤٥ حديث ٢٢، سنن التّرمذيّ ٥ : ٥ حديث ٢٦٠٩.

(٢) الفقيه ١ : ١٢٤ حديث ٦٠٠، الوسائل ٣ : ٥ الباب ٢ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ١.

(٣) منتهى المطلب ١ : ١٩٣.

الصّلاة في بقيّة الأديان :

الصّلاة هي أقدم عبادة، لأنّها من مستلزمات الإيمان بالله تعالى، لذلك لم تخل منها شريعة من الشّرائع السّماويّة، وقد جاء الحثّ على أدائها على ألسنة جميع الأنبياء والرّسل، لما لها من الأثر العظيم في تهذيب النّفوس والقربى من الله سبحانه.

فقد جاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السّلام داعياً ربّه : «رَبِّ اجعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»[١].

وأشاد الله تعالى بذكره إسماعيل عليه السّلام في قوله : «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً»[٢].

وقال تعالى ـ مخاطباً رسوله موسى عليه السّلام ـ : «إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي»[٣].

وفيما يقصّه علينا القرآن الكريم أنّ الملائكة كانت تُنادي مريم بنت عمران ـ أم عيسى عليه السّلام ـ في قوله تعالى : «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ»[٤].

وعيسى عليه السّلام كان يحدّث بنعمة الله تعالى، فيقول ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ : «وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً»[٥].

وقد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل في إقامة الصّلاة بقوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»[٦].

---

(١) إبراهيم : ٤٠.
(٢) مريم : ٥٥.
(٣) طه : ١٤.
(٤) آل عمران : ٤٢.
(٥) مريم : ٣١.
(٦) البقرة : ٨٣.

وخاطب جلّ وعلا رسوله الكريم محمّداً صلّى الله عليه وآله في قوله تعالى: **«وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ»** (١).

في هذه الآية الكريمة؛ حثّ الله الرّسول وسائر المؤمنين على أن يأمروا أهليهم بالصّلاة ويداوموا عليها، كما أنّ فيها إشعاراً بأنّ الصّلاة سبب لإدرار الرّزق؛ فقد روى الطّبرانيّ والبيهقيّ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله كان إذا نزلت بأهله شدّة أو ضيق أمرهم بالصّلاة وتلا هذه الآية (٢).

نبذة من أسرار الصّلاة:

الصّلاة هي الدّعامة الثّالثة من الدّعائم الخمس الّتي بُني عليها الدّين، وهي أوّل عبادة فُرضت على المسلمين، وكان ذلك في مكّة المكرّمة قبل الهجرة بنحو سنة ونصف سنة، ولفرط أهمّيتها والاهتمام بها، فإنّا نجدها ــ وحدها ــ فُرضت في السّماء ليلة الإسراء والمعراج؛ عندما خوطب رسول الله صلّى الله عليه وآله بفرضيّتها؛ فقد روي عن الإمام الصّادق عليه السّلام (أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أُسري به أمره ربّه بخمسين صلاة، فمرّ على النّبيّين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء، حتّى انتهى إلى موسى بن عمران عليه السّلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بخمسين صلاة، فقال: اسأل ربّك التّخفيف، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فسأل ربّه فحطّ عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنّبيّين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء، حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السّلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بأربعين صلاة، فقال: اسأل ربّك التّخفيف، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فسأل ربّه فحطّ عنه عشراً،

---

(١) طه: ١٣٢.

(٢) انظر: روح الصّلاة في الإسلام، للأُستاذ عفيف عبد الفتّاح طبّارة: ٢٦ بتصرّف يسير.

ثمّ مرّ بالنّبيّين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السّلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بثلاثين صلاة، فقال: اسأل ربّك التّخفيف، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فسأل ربّه عزّ وجلّ فحط عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنّبيّين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء، حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السّلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بعشرين صلاة، فقال: اسأل ربّك التّخفيف، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فسأل ربّه فحط عنه عشراً، ثمّ مرّ بالنّبيّين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء، حتّى مرّ بموسى بن عمران عليه السّلام، فقال: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بعشر صلوات، فقال: اسأل ربّك التّخفيف، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فإنّي جئت إلى بني إسرائيل بما افترض الله عزّ وجل عليهم فلم يأخذوا به ولم يقووا عليه، فسأل النّبيّ صلّى الله عليه وآله ربّه عزّ وجل فخفّف عنه فجعلها خمساً، ثمّ مرّ بالنّبيين نبيّ نبيّ لا يسألونه عن شيء حتى مرّ بموسى عليه السّلام، فقال له: بأيّ شيء أمرك ربّك؟ فقال: بخمس صلوات، فقال: اسأل ربّك التّخفيف عن أُمّتك، فإنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فقال: إنّي لأستحي أن أعود إلى ربّي، فجاء رسول الله صلّى الله عليه وآله بخمس صلوات، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: جزى الله موسى بن عمران عن أُمّتي خيراً. وقال الصّادق عليه السّلام: جزى الله موسى عنّا خيراً)(١).

فكان دليلاً على حثّ الله تعالى المؤمنين عليها، وعنايته بها، كيما تكون جزءاً من حياتهم الاجتماعيّة اليوميّة.

إنّ العبادات في الإسلام، وأبرزها الصّلاة؛ تؤدّي بالأُمّة إلى التّكافل الاجتماعي، والوحدة والأُلفة والتّعاون والتّعاطف فيما بينها، ولقد شرّعت في منطقة جزيرة العرب منذ أكثر من أربعة عشر قرناً؛ حيث كانت العرب آنذاك تعيش حياة قبليّة متخلّفة، تتناحر فيما بينها لأتفه الأسباب وأخسّها، فما مضت من مجيء

(١) الفقيه ١ : ١٢٥ الحديث ٦٠٢.

الإسلام ودعوته المباركة إلّا يسير مدّة حتّى أصبحت هذه الأُمّة المتناحرة والمتخلّفة أُمّة موحّدة تسودها روح الأُلفة والأُخوّة والمحبّة وأحمد الخصال الأخلاقيّة والإنسانيّة حتّى عبّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: «**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**»(١) .

وفي ذلك امتنّ الله تعالى علينا بقوله ـ مخاطباً رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله ـ : «**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**»(٢) .

لقد جاء الإسلام ليعصف بكلّ النّوازع الجاهليّة الخسيسة، ويجتثّ كلّ الأمراض الرّوحيّة من نفوس النّاس، ولمّا كانت الصّلاة ـ وهي الظّاهرة الاجتماعيّة الكريمة ـ عالج كلّ تلكم الأمراض بتشريع الصّلاة والحثّ على إقامتها؛ إذ هي تقوم بقسط وافرٍ من العلاج واجتثاث الأمراض الخُلقيّة الّتي هي أشدّ خطورة وأولى بالاهتمام في المجتمع البشريّ.

فالصّلاة قرينة الصّبر والجهاد والزّكاة، فمن أقامها أكسبته الصّبر، وحثّته على الزّكاة، ودفعته إلى الجهاد، ودعته إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، ونهته عن قبيح الأفعال. وذلك بأدائها في مواقيتها؛ مقوّمة الأركان، مستكملة الشّرائط، مع الخشوع والخضوع واستشعار العبد جلال المعبود والخشية منه، واستحضار عظمته في القيام والقعود، والرّكوع والسّجود، والتّشهّد والتّسليم.

وكم في إقامة هذه العبادة من منافع للنّاس ؟!.

ففي التزام المصلّي بالصّلاة: طهارة بدنه وثوبه ومكانه، وفي تحرّزه عن الأنجاس والأقذار تعويد على النّظافة والتّطيّب وسلامة الصّحّة العامّة والحواس، وفي

(١) آل عمران : ١١٠.

(٢) الأنفال : ٦٣.

اجتماع المصلّين على أدائها ـ متجهين إلى قبلة واحدة، متساوين في صفوف واحدة ـ توثيق للألفة، وباعث على التعارف والتحابب، وفي تكرير ذلك ـ في اليوم ـ خمس مرّات تذكير للعبد بربّه، وتعويد للقلب على مراقبته تعالى، ومن راقب الله وقف عند حدوده، وانتهى عن محارمه، ولعلّ هذا وغيره كان السّبب في تشريع الصّلاة، وإعطائها هذه الأهميّة؛ فقد روى الشّيخ الصّدوق «رحمه الله» بإسناده عن محمّد بن سنان: أن أبا الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله؛ أنّ علّة الصّلاة: (إنّها إقرار بالرّبوبيّة لله عزّ وجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبّار جلّ وعلا بالذّلّ والمسكنة، والخضوع والاعتراف والطّلب للإقالة من سالف الذّنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم خمس مرّات إعظاماً لله عزّ وجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذلّلاً، راغباً طالباً للزّيادة في الدّين والدّنيا مع ما فيه من الانزجار والمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ بالّليل والنّهار؛ لئلاّ ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي، ومانعاً من أنواع الفساد)[١].

إنّ من أمعن النّظر في أسرار تشريع الصّلاة وما تضمّنت من استعراض جميع من بلغ سنّ الرّشد وصار بمستوى التّكليف من بين أكثر من مليار مسلم ـ خمس مرّات في كلّ يوم وليلة ـ في صفوف منتظمة بكلّ سكينة ووقار وخشوع؛ الرّئيس إلى جانب المرؤس، والأمير إلى جانب المأمور، والغني إلى جانب الفقير، والمخدوم إلى جانب خادمه، والقويّ إلى جانب الضّعيف، والسّيّد إلى جانب المسود، لا يتميّز الرّفيع من الوضيع، والكلّ منكسر القلب، خاشع لله ربّ الأرباب دون ميزة لبعضهم على البعض، ولا فارق ولا أفضليّة مادّيّة فيما بينهم، وكلّهم مستقبل الكعبة المشرّفة، متّجه إلى بقعة أشرقت فيها شمس الهداية المحمّديّة، يتلو النّشيد

---

(١) علل الشّرائع: ٣١٧ حديث ٢.

الإلهيّ والسّبع المثاني ، متوجّه بقلبه ونفسه إلى المبدأ الواحد ، والإله القادر ، وفي ذلك وحدة الشعور ، وتوحيد المشاعر ، والمفاداة في سبيل نصرة الحقّ والعدالة ، والتّمرين على النّظام والطّاعة والاتّباع والانقياد للإمام ، وفي جميع ذلك تعويد على أُسس العدل الاجتماعي : من المساواة ، والحرّيّة ، والائتلاف ، وصفاء النّفس من كدر الشّوائب ، واتّصافها بأكرم الخصال والمكارم ، وأُمّهات الفضائل ، وعدم الاعتداء على أحدٍ في ماله وحقوقه وعرضه ونفسه . إنّ من ينظر إلى هذا كلّه يجده كافٍ للسلم العام وصلاح المجتمع ، مضافاً الى أنّ الخضوع والخشوع لله تعالى يزيلان الطّمع وحبّ الدّنيا ــ الّذي هو رأس كلّ خطيئة ــ وحبّ المادّة والأنانيّة ، وحبّ الذّات الّذي هو منشأ الحروب والإبادة .

ومّما يجدر ذكره هنا : أنّ مقدّمات الصّلاة تكافح المبادىء الهدّامة ، بالإضافة إلى أنّها تشيّد أُسس النّظافة والصّحّة والثّقافة وشرف الإنسانيّة ؛ إذ يتكرّر للمصلّي في كلّ صلاة أنّ من أهمّ شروط صحّة الصّلاة : إباحة ماء الوضوء ، وإباحة تراب التّيمّم ، وإباحة لباس المصلّي وساتره ، وإباحة مكان الصّلاة ، وإباحة ما يسجد عليه ، فإذا كان شيء من هذه الأُمور مغصوباً بطلت الصّلاة ؛ إذ لا يجوز التّصرّف في مال الغير وملكه ــ إلّا بإذنه ــ فإنّه نتيجة عمله ، ومحصول قواه وغرائزه ، مثل اختصاصه بتلك القوى والغرائز ، ولا يشاركه أحد في ذلك فيعتقد بحكم الحسّ واليقين بأنّ الاختصاص وملكيّة الفرد من الحقوق الطّبيعيّة والفطريّة للإنسان ، وأنّ إنكارها خروج على ناموس الطّبيعة والفطرة ، والنّاس جميعاً متّفقون في مقتضيات الفطرة ، ودين الطّبيعة ، قرّر في تعاليمه هذا الاختصاص الطّبيعيّ ، وجعل ملكيّة الفرد من أهمّ تعاليمه ، وجعل انتزاع ملكه وماله منه بغير رضاه غصباً وحراماً مبطلاً للصّلاة .

وبهذا يتبيّن معنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ

وَٱلْمُنكَرْ»[١] .

فما أحوجنا اليوم إلى الإيمان والعمل بما يقوله الله تعالى والصّلاة الّتي تؤدّي بنا إلى الوحدة والتّآلف ، والتّآخي والتّآزر ، والعزّة والقوّة ، واستعادة كرامتنا الّتي أُهينت ، ومجدنا الّذي هُدّم ، وإنّ أمر هذه الأُمّة لا يُصلح آخره إلّا بما صلح به أوّله .

(١) العنكبوت : ٤٥ .

تَرجَمَةُ مُؤَلِّفِ الكِتَابِ

بسم الله الرّحمن الرّحيم*

الحمد لله رافع درجات العلماء إلى سماك السّما، وناصب أعلام أجر الشّهداء يوم العرض بين الملا، وخافض من شكّ في فضلهم إلى ما تحت الثّرى، وجاعل من جزم بتعظيم قدرهم معهم في الرّفيق الأعلى، والصّلاة على رسوله محمّد خاتم الأنبياء، وعلى آله الأطهار الأصفياء، وأصحابه الأخيار النّجباء.

وبعد: فإنّ أحقّ ما أُودع في الطّروس وتوجّهت إليه النّفوس من فنّ التّواريخ المحفوظة والسّير الملحوظة؛ تواريخ العلماء الأعلام، والفضلاء الفخام؛ إذ عليهم مدار هذا العالم من مبدأ نشوء آدم إلى يوم الحشر والحساب، وهم الهداة إلى طريق الصّواب، والأدلّة على ما ينجي من العقاب، فكان الواجب على الخلق مع ما يترتّب على حفظ تواريخهم وضبط مواليدهم ووفاتهم ونشر سيرهم وما كانوا عليه من المنهج القويم والخير العميم من المهمّات الجليلة والفوائد النبيلة، وانبعاث النّفوس على اقتفاء آثارهم، والتّأسّي بصالح أفعالهم، والاهتداء بمشكاة أنوارهم، والابتهاج بلذيذ أخبارهم، فكان الواجب على النّاس عموماً وعلى التّلامذة خصوصاً إحياء ذكر مشائخهم بنقل أحوالهم من البداية إلى النّهاية، ليكون ذلك تذكرة على ممرّ الأعصار، ووسيلة إلى وقوف من يأتي على ما يتعلّق بهم من محاسن الأخيار، وذريعة إلى

* لمّا رأينا خير من كتب في ترجمة حياة الشّهيد الثّاني «قدّس سرّه» واستقصاء أبعادها الثّقافيّة وجوانبها العلميّة والاجتماعيّة: تلميذه ابن العوديّ «رحمه الله» الّذي كان من خاصّة تلاميذه وأقربهم عنده منزلة، آثرنا أن نضع ــ في هذا المقام ــ ترجمته بقلمه وقلم تلميذه ابن العوديّ؛ تعميماً للفائدة.

إجرائهم على خاطر داعٍ لهم ومترحّمٍ عليهم بجميل الآثار.

وكان أحقّ من نظم في عقد هذا الشّأن، وأولى من نوّه بذكره من فضلاء كلّ زمان؛ شيخنا ومولانا ومرجعنا ومقتدانا ومنقذنا من الجهالة وهادينا ومرشدنا إلى الخيرات ومربّينا، بديع زمانه، ونادرة أوانه، وفريد عصره، وغرّة دهره؛ الشّيخ الإمام الفاضل، والحبر العالم العامل، والنّحرير المحقّق الكامل، خلاصة الفضلاء المحقّقين، وزبدة العلماء المدقّقين: الشّيخ زين الملّة والدّين ابن الشّيخ الإمام نور الدّين عليّ بن الشّيخ الفاضل أحمد بن جمال الدّين بن تقيّ الدّين صالح «تلميذ العلاّمة» بن مشرف العامليّ «أفاض الله على روحه المراحم الرّبّانيّة، وأسكنه في فسيح جنانه العليّة، وجعلنا الله من المقتدين بآثاره، والمهتدين بأنواره؛ بمحمّد وآله عليه وعليهم أفضل الصّلاة وأتمّ السّلام».

ولمّا كان هذا الضّعيف الملهوف عليه، المحزون على طيب عيش من لديه؛ مملوكه وخادمه «محمّد بن عليّ بن حسن العوديّ الجزّينيّ» ممّن حاز على حظّ وافر من خدمته، وتشرّف بمدّة مديدة من ملازمته ــ كان ورودي إلى خدمته في عاشر ربيع الأوّل سنة ٩٤٥هـ إلى يوم انفصالي عنه بالسّفر إلى خراسان في عاشر ذي القعدة سنة ٩٦٢هـ.

فكأنّها أحلامُ نومٍ لم تَكنْ ... يا لَيْتَها دامتْ ولم تَتَصَرَّمِ
وتمتّعتْ منها القلوبُ ونارُها ... منْ فرقةٍ طغيتْ ولم تَتَضَرَّمِ

فواشوقاه إلى تلك الأوقات، ووا أسفاه على ما فات؛ وجب أن توجّه الهمّة إلى جمع تاريخ يشتمل على ما تمّ من أمره من حين ولادته إلى انقضاء عمره؛ تأدية لبعض شكره، وامتثالاً بما سبق إليّ من أمره، فإنّه «قدّس سرّه» كان كثيراً ما يشير إليّ بذلك على الخصوص، ويرغب فيه من حيث العموم، وقد نبّه عليه في «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد».

فجمعت هذه النّبذة اليسيرة وسمّيتها بـ «بغية المريد من الكشف عن أحوال

الشّيخ زين الدّين الشّهيد» ورتّبتها على مقدّمة وفصول وخاتمة:

المقدّمة

في وصفه بالكمال على الإطلاق، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق

حاز من خصال الكمال محاسنها ومآثرها، وتردّى من أصنافها بأنواع مفاخرها، كانت له نفس عليّة تزهي بها الجوانح والظّلوع، وسجيّة سنيّة يفوح منها الفضل يضوع، كان شيخ الأُمّة وفتاها، ومبدأ الفضائل ومُنتهاها، ملك من العلوم زماماً، وجعل العكوف عليها إلزاماً؛ فأحيا رسمها، وأعلى اسمها، لم يصرف لحظة من عمره إلّا في اكتساب فضيلة، ووزّع أوقاته على ما يعود نفعه في اليوم واللّيلة، أمّا النهار ففي تدريس ومطالعة، وتصنيف ومراجعة، وأمّا اللّيل فله فيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل.

هذا مع غاية اجتهاده في التّوجّه إلى مولاه، وقيامه بأوراد العبادة حتّى تكلّ قدماه، وهو مع ذلك قائم بالنّظر في أحوال معيشته على أحسن نظام، وقضاء حوائج المحتاجين بأتمّ قيام، يلقى الأضياف بوجه مسفر عن كرم كانسجام الأمطار، وبشاشة تكشف عن شمم كالنّسيم المعطار، يكاد يبرح بالرّوح، وترتاح إليه النّفوس كالغضّ المروح، إن رآه النّاظر على أُسلوب ظنّ أنّه ما تعطى سواه، ولم يعلم أنّه بلغ من كلّ فنّ منتهاه،ووصل منه إلى غاية أقصاه، فجاء نظامه أرقّ من النّسيم للعليل، وآنق من الرّوض البليل.

أمّا الأدب فإليه كان منتهاه، ورقى فيه حتّى بلغ سماه، وأمّا الفقه فقد كان قطب مداره، وفلك شموسه وأقماره، وكان هوي نجم سعوده في داره، وأمّا الحديث فقد مدّ فيه باعاً طويلاً، وذلّل صعاب معانيه تذليلاً، وشعشع القول فيه وروّقه، ومدّ في ميدان الإعجاز مطلقه؛ حتّى صار نصب عينه عياناً، وجعل للسّالكين في طرقه

تبياناً أدأب نفسه في تصحيحه وإبرازه للنّاس حتّى فشا، وجعل ورده في ذلك غالباً ما بين المغرب والعشاء، وما ذاك إلّا لأنّه ضبط أوقاته بتمامها، وكانت هذه الفترة بغير ورد قرين الأوراد بختامها.

وأمّا المعقول فقد أتى فيه من الإبداع ما أراد، وسبق فيه الأنداد والأفراد، إن تكلّم في علم الأوائل بهج الأذهان والألباب، وولج منها كلّ باب، وأمّا علوم القرآن العزيز وتفاسيره من البسيط والوجيز قد حصل على فوائدها وحازها، وعرف حقائقها ومجازها، وعلم إطالتها وإيجازها، وأمّا الهيئة والهندسة والحساب والميقات فقد كانت له فيها يدٌ لا تقصر عن الآيات، وأمّا السّلوك والتّصرّف فقد كان له فيه تصرّف وأيّ تصرّف.

وبالجملة فهو عالم الأوان ومصنّفه، ومقرط البيان ومشنّفه؛ بتآليف كأنّها الخرائد، وتصانيف أبهى من القلائد وضعها في فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من الإتقان والإبداع، وسلك فيها مسلك المدقّقين، وهجر طريق المتشدّقين، إن نطق رأيت البيان منسرباً من لسانه، وإن أحسن رأيت الإحسان منسباً إلى إحسانه، جدّد شعائر السّنن الحنيفيّة بعد إخلاقها، وأصلح للأُمّة ما فسد من أخلاقها، وبه اقتدى من رام تحصيل الفضائل، واهتدى بهداه من تحلّى بالوصف الكامل، عمّر مساجد الله وأشاد بنيانها، ورتّب وظائف الطّاعات فيها وعظّم شأنها، كم أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكم أرشد من صلّى وصام وحجّ واعتمر.

كان لأبواب الخيرات مفتاحاً، وفي ظلمة عمى الأُمّة مصباحاً، منه تعلّم الكرم كلّ كريم، وبه استشفى من الجهالة كلّ سقيم، واقتفى أثره في الاستقامة كلّ مستقيم، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يثن عزمه عن المجاهدة في تحصيل العلوم الصّوارم، أخلص لله أعماله فأثّرت في القلوب أقواله.

أعزّ ما صرف همّته فيه خدمة العلم وأهله، فحاز الحظّ الوافر لما توجّه إليه بكلّه.

ولقد كان مع علوّ رتبته وسموّ منزلته على غاية من التّواضع ولين الجانب،

ويبذل جهده مع كلّ وارد في تحصيل ما يبتغيه من المطالب ، إذا اجتمع بالأصحاب عدّ نفسه كواحد منهم ، ولم تمل نفسه إلى التميّز بشيء عنهم ، حتّى أنّه كان يتعرّض إلى ما يقتضيه الحال من الأشغال ، من غير نظر إلى حال من الأحوال ، ولا ارتقاب لمن يباشر عنه ما يحتاج إليه من الأعمال .

ولقد شاهدت منه سنة ورودي إلى خدمته أنّه كان ينقل الحطب على حمار في اللّيل لعياله ، ويصلّي الصّبح في المسجد ويشتغل بالتّدريس بقيّة نهاره ، فلمّا أشعرت منه بذلك كنت أذهب معه بغير اختياره ، وكنت أستفيد من فضائله وأرى من حسن شمائله ما يحملني على حبّ ملازمته وعدم مفارقته .

وكان يصلّي العشاء جماعة ويذهب لحفظ الكرم ، ويصلّي الصّبح في المسجد ويجلس للتّدريس والبحث كالبحر الزّاخر ، ويأتي بمباحث عقل عنها الأوائل والأواخر .

ولعمري لقد اشتمل على فضيلة جميلة ومنقبة جليلة تفرّد بها عن أبناء جنسه ، وحباه الله بها تزكية لنفسه ، وهي أنّه من المعلوم البيّن أنّ العلماء «رحمهم الله» لم يقدروا على أن يروّجوا أُمور العلم وينظّموا أحواله ويفرغوه في قالب التّصنيف والتّرصيف حتى يتّفق لهم من يقوم بجميع المهمّات ، ويكفيهم كلّ ما يحتاجونه من التّعلّقات ، ويقطع عنهم جميع العلائق ، ويزيل عنهم جميع الموانع والعوائق ؛ إمّا من ذي سلطان يسخّره الله لهم ، أو ذي مروّة وأهل خير يلقي الله في قلبه قضاء مهمّاتهم ، لئلاّ يحصل الإخلال باللّطف العظيم ، ويتعطّل السّلوك إلى المنهج القويم ، ومع ذلك كانوا في راحة من الخوف بالأمان ، وفي دعة من حوادث الزّمان ، ولكلّ منهم وكلاء قوّامون بمصالح معيشتهم ونظام دنياهم بحيث لا يعرفون إلاّ العلم وممارسته ، ولم يبرز عنهم من المصنّفات في الزّمان الطّويل إلاّ القليل ، ومن التّحقيقات إلاّ اليسير ، وإن كان بعضهم خارجاً عمّا ذكرنا فلاغرو ما كان فيه ـ شيخنا الشّهيد ـ من تمام التّوفيق الموصل إلى غاية مدارك التّحقيق .

وكان شيخنا المذكور ــ روّح الله روحه ــ مع ما عرفت يتعاطى جميع مهمّاته بقلبه وبدنه حتّى لو لم تكن إلّا مهمّات الواردين عليه، ومصالح الضّيوف المتردّدين إليه، مضافاً إلى القيام بأحوال الأهل والعيال ونظام المعيشة وإتقان أسبابها من غير وكيل ولا مساعد يقوم بها، حتّى أنّه ما كان يعجبه تدبير أحد في أُموره ولا يقع على خاطره ترتيب مرتّب لقصوره عمّا في ضميره، ومع ذلك كلّه فقد كان غالب الزّمان في الخوف الموجب لإتلاف النّفس، والتّستّر والاختفاء الّذي لا يسع الإنسان معه أن يفكّر في مسألة من الضّروريّات البديهيّة، ولا يحسن أن يعلّق شيئاً يقف عليه من بعده من ذوي الفطن النبيهة ــ وسيأتي إن شاء الله تعالى في عدّ تصانيفه ما ظهر عنه في زمن الخوف من غزارة العلوم المشبّهة بنفائس الجوهر المنظوم.

وقد برز عنه مع ذلك من التّصنيفات والأبحاث والتّحقيقات والكتابات والتّعليقات ماهو ناشٍ عن عين فكر صاف، وعارف من بحار علم واف، بحيث إذا فكّر من تفكّر في الجمع بين هذا وبين ماذكرنا تحيّر، وهذه فضيلة يشهد له بها كلّ من كان له به أدنى مخالطة، ولا يمكن لأحد فيها مغالطة.

ومن الشّاهد الواضح البيّن أنّ الواحد منّا مع قلّة موانعه وتعلّقاته، و توفّر دواعيه وأوقاته؛ لو بذل الجهد في استقصاء كتابة مصنّفاته وما برز من تحقيقاته فما ــ رأينا أحداً من أصحابه ــ استقصاها ولا بلغ منتهاها، وكفاه بذلك نبلاً وفخراً..

وأمّا شكله فقد كان ربعة من الرّجال في القامة، معتدل الهامة، وفي آخر أمره كان إلى السّمن أميل بوجه صبيح مدوّر، وشعر سبط إلى الشّقرة ماهو مع سواد العينين والحاجبين، وكان له خال على أحد خدّيه، وآخر على أحد جبينيه، وبياض اللّون ولطافة الجسم، عبل الذّراعين والسّاقين، كأنّ أصابع يديه أقلام فضّة، إذا نظر النّاظر في وجهه وسمع عذوبة لفظه لم تسمح نفسه بمفارقته، وتسلّى عن كلّ شيء بمخاطبته، تمتلىء العيون من مهابته، وتبتهج القلوب لجلالته، وأيم الله إنّه لفوق ما وصفت، وقد اشتمل من حميد الخصال على أكثر ممّا ذكرت.

الفصل الأوّل

في مولده وما أعقبه من ختم كتاب الله وترتيب شروعه في تحصيل العلوم والمشائخ الّذين استفاد منهم وأخذ عنهم وأجازوه ومهاجراته.

وقد وجدت بخطه الشّريف قطعة من تاريخ يتضمّن مولده وجملة من أحواله أُوزّع على كلّ فصل من الفصول ما يليق به منها، وأذكر ما أثبته من حفظي عنه أو عن غيره ممّا لم يذكره هو بحسب ما يليق بالحال ــ وبالله التّوفيق.

قال «قدّس الله نفسه، وطهّر رمسه»:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة على أشرف المرسلين، وآله الطّاهرين وأصحابه المنتجبين.

هذه جملة من أحوالي وتصرّف الزّمان بي في عمري وتاريخ بعض المهمّات الّتي اتّفقت لي.

كان مولدي في يوم الثّلاثاء ثالث عشر شوّال سنة إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة النّبويّة، ولا أحفظ مبدأ اشتغالي بالتّعلّم، لكن كان ختمي لكتاب الله العزيز سنة عشرين وتسعمائة من الهجرة النّبويّة، وسنّي إذ ذاك تسع سنين، واشتغلت بعده بقراءة الفنون العربيّة والفقه، على الوالد «قدّس الله سرّه» إلى أن توفّي في العشر الأوسط من شهر رجب يوم الخميس سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وكان من جملة ما قرأته عليه من كتب الفقه «النّافع مختصر الشّرائع» و«اللّمعة الدّمشقيّة».

ثمّ ارتحلت في تلك السّنة مهاجراً في طلب العلم إلى ميس، وكان ابتداء الانتقال في شهر شوّال من السّنة المذكورة، واشتغلت على شيخنا الجليل الشّيخ عليّ بن عبد العالي «قدّس الله سرّه» من تلك السّنة إلى أواخر سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وكان من جملة ما قرأته عليه «شرائع الإسلام» و «الارشاد» وأكثر «القواعد».

ثمّ ارتحلت في شهر ذي الحجّة إلى كرك نوح عليه السّلام، وقرأت بها على المرحوم المقدّس السّيّد حسن بن السّيّد جعفر جملة من الفنون، وكان ممّا قرأته عليه «قواعد ميثم البحرانيّ في الكلام» و «التّهذيب في أصول الفقه» و «العمدة الجليلة في الأُصول الفقهيّة» من مصنّفات السّيّد المذكور، و «الكافية في النّحو» وسمعت جملة من الفقه وغيره من الفنون.

ثمّ انتقلت إلى جبع وطني الأوّل، زمن الوالد في شهر جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين، وأقمت بها مشتغلاً بمطالعة العلم والمذاكرة إلى سنة ٩٣٧هـ.

ثمّ ارتحلت إلى دمشق، واشتغلت بها على الشّيخ الفاضل المحقّق الفيلسوف شمس الدّين محمّد بن مكّي، فقرأت عليه من كتب الطّب «شرح الموجز النّفيسي» و «غاية القصد في معرفة الفصد» من مصنّفات الشّيخ المبرور المذكور و «فصول الفرغاني في الهيئة» وبعض «حكمة الإشراق» للسّهرورديّ، وقرأت في تلك المدّة بها على المرحوم الشّيخ أحمد بن جابر «الشّاطبيّة في علم القراءات» وقرأت عليه القرآن بقراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم.

ثمّ رجعت إلى جبع سنة ٩٣٨هـ، وبها توفّي شيخنا الشّيخ شمس الدّين المذكور، وشيخنا المتقدّم الأعلى الشّيخ عليّ في شهر واحد وهو شهر جمادى الأُولى، وكانت وفاة شيخنا السّيّد حسن سادس شهر رمضان سنة ٩٣٣هـ، وأقمت بالبلدة المذكورة إلى تمام سنة ٩٤١هـ.

ورحلت إلى مصر في أوّل سنة ٩٤٢هـ لتحصيل ما أمكن من العلوم، واجتمعت في تلك السّفرة بجماعة كثيرة من الأفاضل، فأوّل اجتماعي بالشّيخ شمس الدّين بن

طولون الدّمشقيّ الحنفيّ، وقرأت عليه جملة من الصّحيحين وأجازني روايتهما مع ما يجوز له روايته في شهر ربيع الأوّل من السّنة المذكورة.

وكان وصولي إلى مصر يوم الجمعة منتصف شهر ربيع الآخر من السّنة المتقدّمة واشتغلت بها على جماعة.

منهم: الشّيخ شهاب الدّين أحمد الرّملي الشّافعيّ، قرأت عليه «منهاج النّوويّ في الفقه» وأكثر «مختصر الأصول» لابن الحاجب، و «شرح العضدي» مع مطالعة حواشيه منها «السّعديّة» و «الشّريفيّة» وسمعت عليه كتباً كثيرة في الفنون العربيّة والعقليّة وغيرهما، فمنها «شرح التّلخيص المختصر في المعاني والبيان» لملاّ سعد الدّين، ومنها «شرح تصريف العربي» ومنها «شرح الشّيخ المذكور لورقات إمام الحرمين الجويني في أُصول الفقه» ومنها «أذكار النّووي» و بعض «شرح جمع الجوامع المحلّي في أُصول الفقه» و «توضيح ابن هشام في النّحو» وغير ذلك ممّا يطول ذكره، وأجازني إجازة عامّة بما يجوز له روايته سنة ٩٤٣هـ.

ومنهم: الملاّ حسين الجرجانيّ؛ قرأنا عليه جملة من «شرح التّجريد» للملاّ عليّ القوشجيّ، مع «حاشية ملاّ جلال الدّين الدّوانيّ» و «شرح اشكال التأسيس في الهندسة» لقاضي زاده الرّوميّ، و «شرح الجغميني في الهيئة» له.

ومنهم: الملاّ محمّد الاسترابادي؛ قرأنا عليه جملة من «المطوّل» مع «حاشية السّيّد الشّريف» و «الجامي شرح الكافية».

ومنهم: الملاّ محمّد الكيلاني؛ سمعنا عليه جملة من «المعاني والمنطق».

ومنهم: الشّيخ شهاب الدّين بن النّجّار الحنبليّ؛ قرأت عليه جميع «شرح الشّافية» للجاربرديّ، وجميع «شرح الخزرجيّة في العروض» و «القوافي» للشّيخ زكريّا الأنصاريّ، وسمعت عليه كتباً كثيرة في الفنون، والحديث منها الصّحيحان، وأجازني جميع ما قرأت وسمعت، وما يجوز له روايته، في السّنة المذكورة.

ومنهم: الشّيخ أبو الحسن البكريّ؛ سمعت عليه جملة من الكتب في الفقه

والتّفسير، وبعض شرحه على «المنهاج».

ومنهم: الشّيخ زين الدّين الحرّي المالكيّ؛ قرأت عليه «ألفية ابن مالك».

ومنهم: الشّيخ المحقّق ناصر الدّين اللّقاني المالكيّ، محقّق الوقت وفاضل تلك البلدة، لم أر بالدّيار المصريّة أفضل منه في العلوم العقليّة والعربيّة؛ سمعت عليه «البيضاوي في التّفسير» وغيره من الفنون.

ومنهم: الشّيخ ناصر الدّين الطّلاوي الشّافعيّ؛ قرأت عليه القرآن بقراءة أبي عمرو، ورسالة في القراءات من تأليفاته.

ومنهم: الشّيخ شمس الدّين محمّد أبي النّجا النّحّاس؛ قرأت عليه «الشّاطبيّة في القراءات» والقرآن العزيز للأئمّة السّبعة، وشرعت ثانياً أقرأ عليه للعشرة ولم أُكمل الختم بها.

ومنهم: الشّيخ الفاضل الكامل عبد الحميد السّمهوديّ؛ قرأت عليه جملة صالحة من الفنون وأجازني إجازة عامّة.

ومنهم: الشّيخ شمس الدّين محمّد بن عبد القادر الفرضيّ الشّافعيّ، قرأت عليه كتباً كثيرة في الحساب الهموائي و «المرشدة في حساب الهند الغباري» و «الياسمينيّة وشرحها في علم الجبر والمقابلة» و «شرح المقنع في علم الجبر والمقابلة» وسمعت عليه بعض «شرح الوسيلة» وأجازني إجازة عامّة.

وسمعت بالبلد المذكور من جملة متكثّرة من المشائخ يطول الخطب بتفصيلهم، ومنهم: الشّيخ عميرة، والشّيخ شهاب الدّين بن عبد الحق، والشّيخ شهاب الدّين البلقينيّ، والشّيخ شمس الدّين الدّيروطيّ، وغيرهم.

ثمّ ارتحلت من مصر إلى الحجاز الشّريف سابع عشر شهر شوّال سنة ٩٤٣هـ، ورجعت إلى وطني الأوّل بعد قضاء الواجب من الحجّ والعمرة، والتّمتّع بزيارة النّبيّ وآله وأصحابه صلوات الله عليهم، ووصلت رابع عشر شهر صفر سنة ٩٤٤هـ وأقمت بها إلى سنة ستّ وأربعين وسافرت إلى العراق لزيارة الأئمّة عليهم السلام، وكان

خروجي سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٩٤٦هـ ، ورجوعي خامس عشر شهر شعبان منها .

وسافرت لزيارة بيت المقدس منتصف ذي الحجّة سنة ٩٤٨هـ ، واجتمعت في تلك السّفرة بالشّيخ شمس الدّين بن أبي اللّطف المقدسي ، وقرأت عليه بعض «صحيح البخاريّ» وبعض «صحيح مسلم» وأجازني إجازة عامّة ، ثمّ رجعت إلى الوطن الأوّل المتقدّم وأقمت به إلى أواخر سنة إحدى وخمسين مشتغلاً بمطالعة العلم ومذاكرته مستفرغاً وسعي في ذلك .

ثمّ برزت إليّ الأوامر الإلهيّة والإشارات الرّبّانيّة بالسّفر إلى جهة الرّوم ، والاجتماع بمن فيها من أهل الفضائل والعلوم ، والمتعلّق بسلطان الوقت والزّمان السّلطان سليمان بن عثمان، وكان ذلك على خلاف مقتضى الطّبع ومساق الفهم ، لكن ما قدر لا تصل إليه الفكرة الكليلة ، والمعرفة القليلة من أسرار الحقائق وأحوال العواقب ، والكيّس الماهر هو المستسلم في قبضة العالم الخبير القاهر الممتثل لأوامره الشّريفة ، المنقاد إلى طاعته المنيفه ، كيف لا وإنّما يأمر بمصلحة تعود على المأمور ، مع اطّلاعه على دقائق عواقب الأُمور ، وهو الجواد المطلق ، والرّحيم المحقّق ، والحمد لله على إنعامه وإحسانه وامتنانه ، والحمد لله الّذي لا ينسى من ذكره ، ولا يهمل من غفل عنه ، ولا يؤاخذ من صدف عن طاعته ، بل يقوده إلى مصلحته ، ويوصله إلى بغيته .

وكان الخروج إلى السّفر المذكور بعد بوادر الأوامر به ، والنّواهي عن تركه والتّخلّف عنه ، وتأخيره إلى وقت آخر ، ثاني عشر شهر ذي الحجّة الحرام سنة ٩٥١هـ ، وأقمت بمدينة دمشق بقيّة الشّهر ، ثمّ ارتحلت إلى حلب ، ووصلت إليها يوم الأحد سادس عشر شهر المحرم سنة ٩٥٢هـ ، وأقمت بها إلى السّابع من شهر صفر من السّنة المذكورة .

وكان وصولنا إلى مدينة قسطنطنية يوم الإثنين سابع عشر من شهر ربيع الأول

من السّنة السّابعة وهي سنة ٩٥٢هـ ، ووفّق الله تعالى لنا منزلاً حسناً وقفاً ، من أحسن مساكن البلد ، قريباً إلى جميع أغراضنا ، وبقيت بعد وصولي ثمانية عشر يوماً لا أجتمع بأحد من الأعيان ، ثمّ اقتضى الحال أن كتبت في هذه الأ يّام رسالة جيّدة ، تشتمل على عشرة مباحث جليلة ، كلّ بحث في فنّ من الفنون العقليّة والفقهيّة ، والتّفسير وغيرها ، وأوصلتها إلى قاضي العسكر ، وهو محمّد بن قطب الدّين بن محمّد بن محمّد بن قاضي زاده الرّوميّ ، وهو رجل فاضل أديب ، عاقل لبيب ، من أحسن النّاس خلقاً ، وتهذيباً وأدباً ، فوقعت منه موقعاً حسناً ، وحصل لي بسبب ذلك منه حظّ عظيم ، وأكثر من تعريفي و الثّناء عليّ للأفاضل ، واتّفق في خلال المدّة بيني وبينه مباحثة في مسائل كثيرة من الحقائق .

وفي اليوم الثّاني عشر من اجتماعي به ، أرسل إليّ الدّفتر المشتمل على الوظائف والمدارس ، وبذل لي ما اختاره ، وأكّد في كون ذلك في الشّام أو حلب ، فاقتضى الحال أن اخترت منه المدرسة النّوريّة ببعلبك ، لمصالح وجدتها ولظهور أمر الله تعالى بها على الخصوص ، فأعرض لي بها إلى السّلطان سليمان وكتب لي بها براءة ، وجعل لي لكلّ شهر ما شرطه واقفها السّلطان نور الدّين الشّهيد ، واتّفق من فضل الله سبحانه ومنّه لي في مدّة إقامتي بالبلدة المذكورة من الألطاف الإلهيّة والأسرار الرّبّانيّة والحكم الخفيّة ما يقصر عنه البيان ، ويعجز عن تحريره البنان ، ويكلّ عن تقريره اللّسان ، فللّه الحمد والمنّة والفضل والنّعمة على هذا الشّأن ، ونسأله أن يتمّ علينا منه الإحسان ، إنّه الكريم الوهّاب المنّان .

وكانت مدّة إقامتي بمدينة قسطنطنية ثلاثة أشهر ونصفاً ، وخرجت منها يوم السّبت حادي عشر شهر رجب في السّنة المذكورة ، وعبرت البحر إلى مدينة اسكدار ، وهي مدينة حسنة جيّدة صحيحة الهواء ، عذبة الماء ، محكمة البناء ، يتّصل بكلّ دار منها بستان حسن يشتمل على الفواكه الجيّدة العطرة على شاطىء البحر مقابلة لمدينة قسطنطنية بينهما البحر خاصّة ، وأقمت بها أنتظر وصول صاحبنا الشّيخ حسين بن

عبد الصّمد لأنّه احتاج إلى التّأخّر عن تلك اللّيلة.

وكان خروجنا من اسكدار متوجّهين إلى العراق يوم السّبت لليلتين خلتا من شهر شعبان، واتّفق أنّ طريقنا إليها هي الطّريق الّتي سلكناها من سيواس إلى اسطنبول، ووصلنا إلى مدينة سيواس يوم الإثنين لخمس بقين من شعبان، وخرجنا منها يوم الأحد ثاني شهر رمضان، متوجّهين إلى العراق، وهو أوّل ما فارقناه من الطّريق الأُولى، وخرجنا في حال نزول الثّلج، وبتنا ليلة الإثنين أيضاً على الثّلج وكانت ليلة عظيمة البرد.

وانتهينا بعد أربعة أيّام من اليوم المذكور إلى مدينة ملطية، وهي مدينة لطيفة كثيرة الفواكه، تقرب من أصل منبع الفرات، ومررنا بعد ذلك بمدينة لطيفة تسمّى أزغين، وهي قريبة من منبع دجلة.

وكان وصولنا إلى المشهد المقدّس المبرور المشرّف بالعسكريّين بمدينة سامرّاء يوم الأربعاء رابع شهر شوّال، وأقمنا به ليلة الخميس ويومه وليلة الجمعة.

ثمّ توجّهنا إلى بغداد، ووصلنا إلى المشهد المقدّس الكاظميّ يوم الأحد ثامن الشّهر، وأقمنا به إلى يوم الجمعة، وتوجّهنا ذلك اليوم لزيارة وليّ الله تعالى سلمان الفارسيّ وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

ورحلنا منه إلى مشهد الحسين عليه السّلام، ووصلنا يوم الأحد منتصف الشّهر المذكور، وأقمنا به إلى يوم الجمعة.

وتوجّهنا منه إلى الحلّة وأقمنا بها إلى يوم الجمعة، وتوجّهنا منها إلى زيارة القاسم، ثمّ إلى الكوفة، ومنها إلى المشهد المقدّس الغرويّ، ووصلنا إليه يوم الأربعاء ثالث شهر ذي القعدة الحرام، وأقمنا به بقيّة الشّهر.

وكان خروجنا من المشاهد الشّريفة بعد أن أدركنا زيارة عرفة بالمشهد الحائريّ، والغدير بالمشهد الغرويّ، والمباهلة بالمشهد الكاظميّ سابع عشر شهر ذي الحجّة الحرام من السّنة المتقدّمة. ولم يتّفق لنا الإقامة لإدراك زيارة عاشوراء مع

قرب المدّة، لعوارض وقواطع منعت من ذلك والحمد لله على كلّ حال.

واتّفق وصولنا إلى البلاد منتصف شهر صفر سنة ٩٥٣هـ، ووافقه من الحروف بحساب الجمّل حروف «خير معجّل»، وهو مطابق للواقع أحسن الله خاتمتنا بخير كما جعل بدايتنا إلى خير بمنّه وكرمه.

ثمّ أقمنا ببعلبك ودرّسنا فيها مدّة في المذاهب الخمسة وكثير من الفنون وصاحَبْنا أهلَها على اختلاف آرائهم أحسن صحبة، وعاشرناهم أحسن عشرة، وكانت أيّاماً ميمونة وأوقات بهجة ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها.

ثمّ انتقلنا عنهم إلى بلدنا بنيّة المفارقة امتثالاً لأمر إلهي سابقاً في المشاهد الشّريفة ولاحقاً في المشهد الشّريف مشهد شيث عليه السّلام، وأقمنا في بلادنا إلى سنة خمس وخمسين مشتغلين بالدّرس والتّصنيف(١).

الفصل الثّاني

في ذكر اجتهاده، ومتى كانت بدايته، وتعداد مصنّفاته، وما أفاده من التّحقيقات في الرّسائل الفائقة والمباحث الرّائقة

أخبرني «قدّس الله لطيفه» وكان في منزلي بجزّين متخفّياً من الأعداء ليلة الإثنين حادي عشر شهر صفر سنة ٩٥٦هـ أنّ مولده كان في ثالث عشر شوّال سنة ٩١١هـ، وأنّ ابتداء أمره في الاجتهاد كان سنة ٩٤٤هـ، وأنّ ظهور اجتهاده وانتشاره كان في سنة ٩٤٨هـ، فيكون عمره لمّا اجتهد ثلاثاً وثلاثين سنة.

وكان في ابتداء أمره يبالغ في الكتمان، وشرع في شرح «الإرشاد» ولم يبده

---

(١) قال ابن العوديّ: هذا آخر ما وجدته بخطّه الشّريف ممّا نسبه إليه من التّاريخ المنيف، وهذا التّاريخ كان خاتمة أوقات الأمان والسّلامة من الحدثان، ثمّ نزل به ما نزل وستقف عليه إن شاء الله.

لأحد، فكتب منه قطعة ولم يره أحد، فرأيت في منامي ذات ليلة أنّ الشّيخ على منبر عالٍ، وهو يخطب خطبة ما سمعت مثلها في البلاغة والفصاحة، فقصصت عليه الرّؤيا فدخل إلى البيت وخرج وبيده جزء فناولني إيّاه، فنظرته فإذا هو «شرح الإرشاد» وقد اشتمل على خطبته المعروفة الّتي أخذت بمجامع البراعة والفصاحة وتردّت بحسن التّرصيع والبلاغة، سيّما باشتمالها على براعة الاستهلال المفهمة لموضوع الكتاب، وتعداد جملة من كتب الفقه بأوجز عبارة وأرشف إشارة، وقال «أعلى الله درجته»: هذه الخطبة الّتي رأيتها. وأمرني أن أُطالع الجزء خفية وكان كلّما فرغ من جزء يأتيني به فأُطالعه، وهذا الكتاب ما صنّف للشّيعة مثله، مزج المتن بالشّرح ولم يسبق إلى هذه الطّريقة من أصحابنا، خرج منه مجلّد ضخم كتاب الطّهارة والصّلاة لو يتمّ لتمّ به المراد، ولكنّ حكمة الله تقتضي غالباً عكس ما يظهر لعقول العباد.

ثمّ أكبّ على المطالعة والتّأليف، واستفراغ الوسع في التّدريس والتّصنيف، إلى سنة ثمان وأربعين وتسعمائة، حتّى أراد الله إظهار ما أراد كتمانه، وأعلى في البريّة شأنه، وألقى في قلوب ذوي العلم الإنقياد إليه، والتّسليم لما اعتمد عليه، ودخل معه كلّ من له بالشّريعة المطهّرة تقييد في ربقة الرّجوع إليه بالتّقليد، وظهرت عنه التّصانيف الفائقة، والمباحث الرائقة، ورجعت إليه الفضلاء بالإذعان واطلق في ميدان السّبق العنان، وصارت فضائله مشاهدة بالعيان.

فأوّل ما أفرغه في قالب التّصنيف الشّرح المذكور لإرشاد الإمام العلاّمة جمال الدّين الحسن بن المطهّر «قدّس الله روحه» يعرف فضله من وقف عليه من أُولي الفضل، ورفع حجاب الهوى عن بصيرة العقل، خرج منه مجلّد ضخم، ثمّ قطع عنه على آخر كتاب الصّلاة، والتفت إلى التّعلّق بأحوال الألفيّة والمقلّدين في الصّلاة اليوميّة، وكتب عليها حاشية وسطى تتعلّق بمهمّات، وأُخرى مختصرة تكتب على الهامش لتقييد الفتوى وغالب العبادات، وشرحاً مطوّلاً مجلّداً كاملاً مزج فيه المتن بالشّرح أيضاً، واشتمل على مباحث شريفة وتحقيقات لطيفة.

ومن مصنّفاته «شرح الرّسالة النّفليّة» للإمام السّعيد أبي عبد الله الشّهيد مزجاً، مجلّد.

ومنها «الرّوضة البهيّة [في] شرح اللّمعة الدّمشقيّة» للشّيخ المبرور المحبور الشّهيد المذكور، مجلّدان مزجاً أيضاً، سلك فيه مسلكاً لطيفاً، وحرّره تحريراً معروفاً(١).

ولمّا علم الله النّسبة بينه وبين الشّهيد من المشاركة في نيل درجة السّعادة بخاتمة الشّهادة، ألقى في قلبه الميل إلى إحياء آثاره، والتّعليق بشرح مصنّفاته وإظهار تحقيقاته، ولقد كانت نفسه كأنّها ممزوجة بنفسه، وكثيراً ما كان يبني على مباحثه، ويرجع إلى عباراته ويصوّب ما اعتمده من ترجيحاته. كان من أُنسه به كأنّه معاصره، ومن اطّلاعه على شريف أنفاسه كأنّه معاشره «قدّس الله روحهما الزّكيّة وأفاض عليهما المراحم الرّبّانيّة».

وأمّا رغبته في الشّروح المزج، فإنّه لمّا رآها للعامّة وليس لأصحابنا منها حملته الحميّة على ذلك، ومع ذلك فهي في نفسها شيء حسن.

ومنها «شرح الشّرائع» الّذي تفجّرت منه ينابيع الفقه، وأخذ بمجامع العلم، سلك فيه أوّلاً مسلك الاختصار على سبيل الحاشية حتّى كمل منه مجلّد، وكان «قدّس سرّه» كثيراً مايقول: نريد نضيف إليه تكملة لاستدراك ما فات، ثمّ أخذ في الإطناب حتّى صار بحراً يسلك فيه سفن أُولي الألباب، فكمل سبعة مجلّدات ضخمة، من أحرزه فقد أحرز تمام الفقه ممّا حواه، واستغنى بمطالعته عن غيره من كلّ كتاب سواه.

ومنها كتاب «تمهيد القواعد الأُصوليّة والعربية لتفريع فوائد الأحكام

---

(١) جاء في الهامش: كتب في أوّل المجلّد الأوّل ابتداء تصنيفه ووضع تاريخ آخره، فتكون المدّة هي ستّة أشهر وأيّاماً.

الشّرعيّة» مجلّد سلك فيه مسلكاً بديعاً ومنهجاً غريباً ما سُبق إليه، رتّبه على قسمين:

أحدهما: في تحقيق القواعد الأُصوليّة وتفريع ما يلزمها من الأحكام الفرعيّة.

والثّاني: في تقرير المطالب العربيّة وترتيب ما يناسبها من الفروع الشّرعيّة، واختار من كلّ قسم منهما مائة قاعدة متفرّقة من أبواب مضافة إلى مقدّمات وفوائد ومسائل لا نظير لها في ردّ الفروع إلى أصولها المقيّد بالملكة القدسيّة الّتي هي العمدة في المسائل الاجتهادية، ووضع له فهرستاً مشتملاً على جدول لطيف يستخرج منه الطّالب أيّ مسألة أرادها، ولقد وصفنا هذا الكتاب لبعض فضلاء العجم بقزوين فقال: مثل قواعد الشّهيد؟ قلنا: أحسن. فقال: دعوى عظيمة، فقلنا: الشّاهد حاضر، ودفعنا إليه الكتاب فأخذه إلى منزله، وفي اليوم الثّاني أرسل يستأذن منّا في تقطيع أجزائه وتفريقها على الكتاب ليكتبوه عاجلاً، فكتبه في أيّام قلائل ومدحه.

ومنها «حاشية على قطعة من عقود الإرشاد للعلاّمة» مشتملة على تحقيقات مهمّة ومباحث محرّرة.

ومنها «حاشية على قواعد الأحكام» للعلاّمة أيضاً، حقّق فيها المهمّ من المباحث، ومشى فيها مشي الحاشية المشهورة بالبخاريّة، للمولى السّعيد الشّيخ الشّهيد، وغالب المباحث فيها بينه وبينه، برز منها مجلّد لطيف إلى آخر كتاب التّجارة.

ومنها كتاب «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» مجلّد مشتمل على مهمّات جليلة وفوائد نبيلة، تحمل على غاية الانبعاث في التّرغيب في اكتساب الفضائل واجتناب الرّذائل، والتّحلّي بشيم الأخيار، والعلماء الأبرار.

ومنها «حاشية مختصرة على الشّرائع» خرج منها قطعة صالحة.

ومنها جزء لطيف يشتمل على فتوى خلافيّات «الشّرائع».

ومنها حاشية على «المختصر النّافع» تشتمل على تحقيق المهمّ منه.

ومنها «رسالة في أسرار الصّلاة القلبيّة» رتّبها على ترتيب الألفية، وذكر

وظائف كلّ باب باعتبار ملاحظة القلب للأسرار الباطنيّة حسب ترتيب الواجبات الظّاهرة. **[وهي هذا الكتاب]**.

ومنها «رسالة في أحكام نجاسة البئر بالملاقاة وعدمها» جمع فيها الأقوال، وحرّر فيها الحال.

ومنها «رسالة فيما إذا تيقّن الطّهارة والحدث وشكّ في السّابق منهما».

ومنها «رسالة فيما إذا أحدث المجنب في أثناء غسل الجنابة حدثاً أصغر» وتحقيق المحلّ على أتمّ وجه.

ومنها «رسالة في تحريم طلاق الحائض الحائل، الحاضر زوجها عندها المدخول بها».

ومنها «رسالة تشتمل على حكم صلاة الجمعة في حال الغيبة، وتحقيق الخلاف فيها وبيان ما اعتمد عليه وساقه البرهان».

ومنها «رسالة في الحثّ على صلاة الجمعة».

ومنها «رسالة نفيسة في بيان حال حكم المسافر إذا نوى إقامة عشرة أيّام في غير بلده» وتقسيم المسألة إلى أقسامها المشهورة، وفيما إذا خرج ناوي المقام عشرة إلى ما دون المسافة وتقسيمها أيضاً إلى أقسامها، وبيان جميع أحكامها. جليلة الفروع غريبة الوقوع سمّاها «نتائج الأفكار في حكم المقيمين في الأسفار».

ومنها «منسك الحجّ والعمرة».

ورسالة لطيفة في نيّاتهما.

ومنها «رسالة في أحكام الحبوة وتحقيق المقام على أتمّ نظام».

ومنها «رسالة في تحقيق ميراث الزّوجة غير ذات الولد وتحرير الأقوال وبيان سائر الأحوال».

ومنها «رسالة في أجوبة ثلاثة عن ثلاث مسائل لبعض الأفاضل» إحداها: في شخص على بدنه منيّ واغتسل في ماء كثير ومعّك بدنه لإزالة الخبث، فلمّا انصرف

تيقّن أنّ تحت أظفاره شيئاً من وسخ البدن المختلط بالمنيّ فهل يطهر الوسخ الّذي له جرم مخالط للمنيّ بنفوذ الماء في أعماقه أم لا ؟ والثّانية : قطعة الجلد المنفصلة عن بدن الإنسان هل هي طاهرة أم نجسة ؟ والثّالثة : في شخص مرض مرضاً بالغاً أراد الوصيّة فعرض عليه بعض أصحابه أن يجعل عشرين توماناً من ماله خمساً ، فقال : اجعلوا إلى آخر السّؤال.

ومنها «رسالة في عشرة مباحث في عشرة علوم» صنّفها في اصطنبول ، وعقد في كلّ مبحث إشكالاً يعجز عن حلّه الرّاسخون في العلم .

ومنها كتاب «مسكّن الفؤاد في فقد الأحبّة والأولاد» .

ومنها «رسالة في الغيبة وتحقيق أحكامها» .

ومنها «رسالة في عدم جواز تقليد الأموات من المجتهدين ووجوب تقليد الأحياء منهم على المكلّفين ، صنّفها برسم الصّالح الفاضل المرحوم السّيّد حسين بن أبي الحسن «قدّس الله روحه» .

ومنها «البداية في علم الدراية وشرحها» .

ومنها كتاب «غنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدّثين» وهذا العلم لم يسبقه أحد من علمائنا إلى التّصنيف فيه ، وهو أوّل من فتح بابه وذلّل صعابه .

ومنها كتاب «منار القاصدين في أسرار معالم الدّين» .

ومنها «رسالة في شرح قوله صلّى الله عليه وآله (الدّنيا مزرعة الآخرة)» .

إلى هنا كلام جامع الكتاب.

وأقول : وأنا الفقير إلى الله تعالى عليّ بن محمّد بن الحسن بن زين الدّين «عفا الله عنهم» أنّي عثرت له «قدس الله روحه» على كتب ورسائل غير ماذكره هنا .

وهي : كتاب «الرّجال والنّسب» ذكره في بعض مصنّفاته .

و «كتاب في تحقيق الإسلام والإيمان» عندي بخطّي .

و «رسالة في تحقيق النّيّة» عندي بخطّي .

و «رسالة في الولاية وأنّ الصّلاة لا تقبل إلّا بها» ذكرها في «شرح الإرشاد».

و «رسالة في طلاق الغائب».

ورسالة في المختار من مواضع الخلاف من اللّمعة.

ورسالة في تحقيق الإجماع عندي بخطه.

وكتاب الإجازات ذكره في بعض فوائده.

وحاشية على الإرشاد إلى آخره.

ومنظومة في النّحو وشرحها ؛ رأيت بعضها بخطّه.

ورسالة في شرح «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ؛ عندي بخطّ والدي رحمه الله.

وسؤالات الشّيخ زين الدّين وأجوبتها، وسؤالات الشّيخ أحمد وأجوبتها.

ورأيت في تفصيل لمصنّفاته زيادة عمّا ذكر وهي: «فتاوى الإرشاد» «بغية المريد مختصر منية المريد»، «مبرّد الإكباد مختصر مسكّن الفؤاد»، «مختصر الخلاصة فتاوى المختصر»، ورسالة في تحقيق قوله تعالى: «والسّابقون الأوّلون...».

و «رسالة في تحقيق العدالة»، و «جواب المباحث النّجفيّة»، و «جواب المسائل الهنديّة»، «المسائل الشّاميّة»، و «الرّسالة الاصطنبوليّة في الواجبات العينيّة»، و «البداية في سبيل الهداية»، و «فوائد خلاصة الرّجال»، و «رسالة في دعوى الإجماع في مسائل من الشّيخ ومخالفة نفسه».

وسمعت من بعض مشائخنا أنّ مصنّفاته بلغت ستّين مصنّفاً.

الفصل الثالث

في ذكر أصحابه وفضلاء تلامذته الّذين قرؤا عليه وتردّدوا إليه وأخذوا عنه واستفادوا منه؛ من العرب وغيرهم.

أوّل من قرأ عليه في أوائل أمره وتصدّيه للتّدريس: الشّيخ الفاضل العالم الكامل عزّ الدّين حسين بن عبد الصّمد الحارثيّ الهمدانيّ: صحبه مدّة مديدة، وقرأ عليه كتباً عديدة؛ منها: «قواعد» الإمام العلاّمة؛ من أوّلها إلى آخرها، وباقي مفرداته مذكور في إجازة مطوّلة أجازه إيّاها؛ مشتملة على محاسن جميلة، وفوائد جليلة، وكان رفيقه إلى مصر في طلب العلم، وإلى اصطنبول في المرّة الأُولى، وفارقه في العراق، وأقام بها مدّة ثمّ ارتحل إلى خراسان، واستوطن هناك الآن «أدام الله توفيقه».

ومنهم: الشّيخ عليّ بن زهرة الجبعيّ؛ ابن عمّ الشّيخ حسين المذكور، قرأ عليه جملة من العلوم، وكان غاية من الصّلاح والتّقوى والخير والعبادة، كان شيخنا يعتقد فيه الولاية، وكان رفيقه إلى مصر وتوفّي بها «رحمه الله».

ومنهم: الشّيخ الجليل العالم الفاضل الشّيخ محمّد بن الشّيخ محمّد الحرّ «أبقاه الله تعالى» والد زوجته المتوفّاة في حياته بمشغر؛ من أوّل المذعنين باجتهاده، المخلصين معه؛ قرأ عليه جملة من الكتب، وأخذ عنه شرائع دينه، وأجازه إجازة عامّة، وكانت له به خصوصيّة ومحبّة صادقة وعلاقة متّصلة بتمام المودّة وصدق المحبّة.

ومنهم: السّيّد الجليل الكبير المعظّم، خلاصة الأخيار، وعمدة الأبرار، وزين الأفاضل، وعمدة الأوان، ونادرة الزّمان؛ صاحب الشّيم المرضية، والأخلاق

السّنيّة، السّيّد نور الدّنيا والدّين ابن المرحوم السّيّد فخر الدّين عبد الحميد الكركيّ، القاطن بدمشق الآن «أدام الله أيّامه، وأعلى الله مقامه» وأنّه من أكابر خاصّته، وأوائل العاكفين على ملازمته؛ قرأ عليه جملة من العلوم الفقهيّة وغيرها، وأخذ عنه وأجازه، وكان له «قدّس سرّه» عليه مزيد اعتماد، ومحكم استناد.

ومنهم: السّيّد الإمام العلاّمة، خلاصة السّادة الأبرار، وعين العلماء الأخيار، وسلالة الأئمّة الأطهار؛ السّيّد العالم الفاضل الكامل ذو المجدين عليّ بن الإمام السّيّد البدل، أوحد الفضلاء، وزبدة الأتقياء، السّيّد المرحوم المبرور عزّ الدّين حسين بن أبي الحسن العامليّ «أدام الله شريف حياته» ربّاه كالوالد لولده، ورقّاه إلى المعالي بمفرده، وزوّجه ابنته رغبة فيه، وجعله من خواصّ ملازميه؛ قرأ عليه جملة من العلوم الفقهيّة والعقليّة والأدبيّة وغيرها، وأجازه إجازة عامّة.

ومنهم: السّيّد الجليل الفاضل العالم الكامل، فخر السّادة الأعلام، وأعلم العلماء الفخام، وأفضل الفضلاء في الأنام؛ السّيّد عليّ بن السّيّد الجليل النّبيل حسين الصّائغ العاملي «أدام الله توفيقه»؛ قرأ عليه وسمع منه جملة نافعة من العلوم في المعقول والمنقول والأدب وغير ذلك، وكان «قدّس الله لطيفه» له به خصاصة تامّة»[1].

كيفيّة شهادته، وسببها، وتأريخها:

قال الشّيخ الحرّ العامليّ «قدّس الله سرّه»:

وكان سبب قتله ــ على ما سمعته من بعض المشايخ ورأيته بخطّ بعضهم ــ:

---

(١) إلى هنا نقلناه من مقدمة كتاب «كشف الرّيبة في أحكام الغيبة» بتصرّف واختصار نقلاً عن رسالة ابن العودي؛ المطبوعة ضمن كتاب «الدرّ المنثور من المأثور وغير المأثور» ٢: ١٤٩ ــ ١٩٨ لحفيد الشّهيد المحدّث المفسّر الشّيخ عليّ بن محمّد بن الحسن بن زين الدّين الجبعيّ «قدّس الله أسرارهم»، وهو الكتاب الرّابع ضمن سلسلة من مخطوطات مكتبة آية الله العظمى النّجفيّ المرعشيّ «قدّس سرّه».

أنّه ترافع إليه رجلان فحكم لأحدهما على الآخر، فغضب المحكوم عليه وذهب إلى قاضي صيدا واسمه معروف، وكان الشّيخ مشغولاً في تلك الأيّام بتأليف «شرح اللّمعة» وفي كلّ يوم يكتب منه غالباً كرّاساً ويظهر من نسخة الأصل أنّه ألّفه في ستّة أشهر وستّة أيّام، لأنّه كتب على ظهر النّسخة تاريخ ابتداء التّأليف، فأرسل القاضي إلى جبع من يطلبه، وكان مقيماً في كرم له مدّة منفرداً عن البلد متفرّغاً للتّأليف، فقال له [بعض] أهل البلد: قد سافر عنّا مدّة، فخطر ببال الشّيخ أن يسافر إلى الحج، وكان قد حجّ مراراً لكنّه قصد الاختباء، فسافر في محمل مغطّى، وكتب قاضي صيدا إلى سلطان روم أنّه قد وجد ببلاد الشّام رجل مبدع خارج عن المذاهب الأربعة، فأرسل السّلطان رجلاً في طلب الشّيخ، وقال له: ائتني به حيّاً حتّى أجمع بينه وبين علماء بلادي فيبحثوا معه ويطّلعوا على مذهبه ويخبروني فأحكم عليه بما يقتضيه مذهبي.

فجاء الرّجل فأخبر أنّ الشّيخ توجّه إلى مكّة، فذهب في طلبه فاجتمع به في طريق مكّة، فقال له: تكون معي حتّى نحجّ بيت الله ثمّ افعل ما تريد؟ فرضي بذلك، فلمّا فرغ من الحج سافر معه إلى بلاد الرّوم، فلمّا وصل إليها رآه رجل فسأله عن الشّيخ، فقال: رجل من علماء الشّيعة الإماميّة أُريد أن أُوصله إلى السّلطان، فقال: أوَ ما تخاف أن يخبر السّلطان بأنّك قد قصّرت في خدمته وآذيته وله هناك أصحاب يساعدونه فيكون سبباً لهلاكك، بل الرّأي أن تقتله وتأخذ برأسه إلى السّلطان! فقتله في مكانه من ساحل البحر، وكان هناك جماعة من التّركمان، فرأوا في تلك اللّيلة أنواراً تنزل من السّماء وتصعد، فدفنوه هناك وبنوا عليه قبّة، وأخذ الرّجل رأسه إلى السّلطان، فأنكر عليه وقال: أمرتك أن تأتيني به حيّاً فقتلته؟! وسعى السّيّد عبد الرّحيم العبّاسي في قتل ذلك الرّجل فقتله السّلطان[1]

---

(١) أمل الآمل ١ : ٩٠.

قال مؤلّف «الدّرّ المنثور» حفيد الشّهيد :

وممّا سمعته في بلادنا مشهوراً ، ورأيته أيضاً مشهوراً في غيرها ، أنه «قدّس الله روحه» لـمّا سافر السّفر الأوّل إلى اصطنبول ، و وصل إلى المكان الّذي قتل به تغيّر لونه ، فسأله أصحابه عن ذلك فقال ما معناه : انّه يقتل في هذا المكان رجل كبير أو عظيم له شأن ، فلمّا أُخذ قتل في ذلك المكان .

وقد وجد بخطّ المرحوم المبرور الشّيخ حسين بن عبد الصّمد «رحمه الله» بعد سؤاله وصورة السّؤال والجواب :

سئل الشّيخ حسين عبد الصّمد «رحمه الله» : ما يقول مولانا شيخ الإسلام فيما روي عن الشّيخ المرحوم المبرور الشّهيد الثّاني أنّه مرّ بموضع في اصطنبول ومولانا الشّيخ «سلّمه الله» معه ، فقال : يوشك أن يقتل في هذا الموضع رجل له شأن ، أو قال شيئاً قريباً من ذلك ، ثمّ أنّه استشهد «رحمه الله» في ذلك الموضع ، ولا ريب أنّ ذلك من كراماته «رحمه الله وأسكنه جنان الخلد ؟» .

[فأجاب] : نعم ، هكذا وقع منه «قدّس الله سره» وكان الخطاب للفقير ، ويقال : انّه استشهد في ذلك الموضع ، وذلك ممّا كشف لنفسه الزّكيّة «حشره الله مع الأئمّة الطّاهرين» كتبه حسين بن عبد الصّمد الحارثيّ ثامن عشر ذي الحجّة سنة ٩٨٣ [هـ] في مكّة المكرّمة المشرّفة «زادها الله شرفاً وتعظيماً» .

وحكي عن الشّيخ البهائيّ «رحمه الله» أنّه قال :

أخبرني والدي أنّه دخل في صبيحة بعض الأيّام على شيخنا الشّهيد المعظّم ، فوجده متفكّراً ، فسأله عن سبب تفكّره ، فقال : يا أخي ، أظنّ أن أكون ثاني الشّهيدين ، لأنّي رأيت البارحة في المنام السّيّد المرتضى علم الهدیٰ «رضي الله عنه» عمل ضيافة جمع فيها العلماء الإماميّة بأجمعهم في بيت ، فلمّا دخلت عليهم قام السّيّد المرتضى ورحّب بي ، وقال لي : يا فلان ، اجلس بجنب الشّيخ الشّهيد ، فجلست بجنبه ، فلمّا استوى بنا المجلس انتبهت ، ومنامي هذا دليل ظاهر على أنّي

أكون تالياً له في الشّهادة.

وأمّا عن تأريخ شهادته «قدّس سرّه» ؛ فقد نقل عن حفيده، صاحب «الدّرّ المنثور» في ذلك ما لفظه:

ورأيت بخطّ جدّي المبرور الشّيخ حسن «قدّس الله نفسه» في يوم الثّلاثاء ثالث عشر شهر شوّال سنة إحدى عشرة وتسعمائة، واستشهد في سنة خمس وستّين وتسعمائة.

وقال السّيّد محسن الأمين العامليّ «رحمه الله»:

إنّه استشهد يوم الجمعة في شهر رجب سنة ٩٦٦ [هـ]، وإليه ذهب السّيّد التّفريشيّ في نقده: ١٤٥. فيكون عمره الشّريف بين ٥٤ و ٥٥ سنة. وقد أرّخه بعضهم بقوله: (مثوى الشّهيد جنّة) = ٩٦٤. وعن «تاريخ جهان آرا» الفارسيّ: إنّه استشهد يوم الخميس سنة ٩٦٥هـ[1].

مراثيه:

وقد رثاه جمع ؛ منهم: تلميذه الفاضل ابن العوديّ حيث يقول:

هذي المنازل والآثار والطّللُ … مخبّرات بأنّ القوم قد رحلوا
ساروا وقد بعدت عنّا منازلُهُم … فاليوم لا عوضٌ عنهم ولا بدلُ
فسرت شرقاً وغرباً في تطلّبهم … وكلّما جئت ربعاً قيل لي رحلوا
حتّى وصلت إلى دير وراهبه … يتلو الزّبور وجنحُ اللّيل منسدلُ
شبكت عشري على رأسي وقلت له … يا راهب الدّير هل مرّت بك الإبلُ
يا راهب الدّير بالإنجيل تخبرني … عن الرّكاب الّتي في حيّكم نزلوا
فرقّ لي وبكى من رحمة وشكا … وقال لي يافتى قلّت بك الحِيَلُ
إنّ الرّكاب الّتي عنهم تُسائلني … بالأمس قد نزلوا واليوم قد رحلوا

---

(١) أعيان الشّيعة ٧ : ١٤٣.

فحين أيقنت أنّ الذّكر منقطع وأنّه ليس لي في وصلهم أملُ
رجعت والعين عبرى والفؤاد شج والحزن بي نازل والصّبر مرتحلُ
وجئت ناديهم ألفيته قفراً والطّير تندبه والسّهل والجبلُ
وعاينت عيني الأصحاب في وجلٍ والعين منهم بميل الحزن تكتحلُ
فقلت مالكُمُ لاخاب فألكُمُ قد حال حالكُمُ والضُّرُّ مشتملُ
هل نالكم غير بُعد الإلف عن وطنٍ قالوا فُجعنا بزين الدّين يا رجلُ
أتى من الرّوم لا أهلاً بمقدمه ناع نعاه فنارُ الحزن تشتعلُ
يقول أنّ أُولي العدوان قد شهروا سيف الضّلال وللمذكور قد قتلوا
لمّا سمعت كلام القوم خامرني وجدٌ وحلّ بقلبي المبتلى وَجلُ
وصار حزني أنيسي والبُكا سكني والنّوحُ دأبي ودمع العين منهملُ
لهفي له نازح الأوطان منجدلاً فوق الصّعيد عليه التّرب مشتملُ
مضرّجاً بالدّما لاغسل ولا كفن لاقبر فيه يواري ذلك البطلُ
لا بلّغ الله عيني طيب رؤيته إن حلّ في خاطري يوماً له بدلُ
أشكو إلى الله رزءاً ليس يشبهه إلّا مصيبة من في كربلا قُتلوا
قد كنت أمّلت آمالاً أُسرّ بها فخاب ظنّي وقد ضاقت بي السُّبُلُ
لكن تسلّت همومي مُذْ رأيتُهُمُ في النّوم في جنّة الفردوس قد نزلوا
منعّمين مع الأصحاب قاطبة في جنّة الخلد لا بُؤس ولا وَجلُ
هذا وحزني عليهم لا انقضاء له حتّى أراهم عياناً حيثما نزلوا

بين يدي الكتاب:

«التّنبيهات العليّة على وظائف الصّلاة القلبيّة» أو «أسرار الصّلاة» كتاب وإن كان مختصراً في حجمه، إلّا أنّه عظيم في محتواه، جليل في معانيه، واضح العبارات، سليم التّركيبات، شيّق ممتع إلى الغاية، كفيل بإرشاد القارىء وتعليمه أدب الوقوف

بين يدي ربّ الأرباب في أشرف الأعمال ــ وهي الصّلاة ــ ولكن أيّ صلاة؟ تلك الّتي يريدها الله تعالى لعباده، المشتملة على الرّوح العباديّة السّاميّة، الّتي يتحقّق فيها المعنى الحقيقي لها.

إنّ هذا الكتاب يهدي إلى نور الإيمان، ويدعو إلى معرفة المؤمن قدر نفسه ومنزلته ومكانته، ليعرف ــ بعد ذلك ــ كيفيّة التّعامل مع خالقه الكريم، من خلال الصّلاة: أُولى الفرائض، وأُمّ الفضائل، فقد نفى المصنّف «قدّس سرّه» فيه عن أذهان الكثير أن تكون الصّلاة أقوالاً وأفعالاً غايتها حمد الرّبّ والثّناء عليه فحسب، بل أرشد إلى أن للصلاة غايات وأهداف سامية أُخرى لا تقلّ أهمية عن سائر ما يعتقده المسلمون.

فكان أن جاء الكتاب محكم النّسج، منظّم الأبواب، متين البناء، مرتّب الفصول، مسترسلاً، مشوّقاً، مرّغباً، يجمع إلى متعة الرّوح طرافة البحث وشمول الموضوع وعمقه ودقّته وطريقته المبتكرة، وليس بينك وبين أن تعرف صدق هذا الادّعاء إلّا أن تقرأه ولو مرّة واحدة لتقف على صحة هذا المدّعى. وأنا زعيم بأنّ من يقرؤه بتدبّر واعتبار سيجد فيه إرواءاً لظمأ روحه، وإنعاشاً لضيق صدره، وسموّاً روحيّاً لا نظير له. كلّ هذا يجعل لهذا الكتاب سبيلاً إلى بيت كلّ مسلم يريد أن يفهم معنى الصّلاة، ويدرك أسرار وقوفه بين يدي ربّه؛ ليعود أشدّ إيماناً، وأخلص جناناً، وأشرق قلباً، وأصفى سريرة.

وإنّي لأرى لزاماً على كلّ من يحرص على أن تكون صلاته بالمستوى الّذي يُرضي به ربّه، أن يقتني هذا الكتاب، ويضعه بين يدي إخوته وعائلته وكلّ من يَمُتّ إليه بِصلة، كيما تكون الاستفادة أكثر في الإرشاد إلى حقيقة هذه العبادة الشّريفة، ممتثلاً قوله تعالى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا»(١)

---

(١) طه: ١٣٢.

النّسخ الخطّيّة المعتمدة :

اعتمدت في تحقيق الكتاب وتقويم نصّه على أربع نسخ ، هي كالآتي :

١ ـ النّسخة الخطّيّة المحفوظة في المكتبة المركزيّة بالآستانة الرّضويّة المقدّسة في مدينة مشهد ، ضمن مجموعة خطّيّة برقم ٩٨٠٨ (الكتاب الثّاني) ، بتأريخ ١٠٩٥هـ ، مجهولة النّاسخ ، تقع في ٣٦ ورقة ، تحتوي كلّ صفحة منها ٢٠ سطراً ، بحجم ٢٥ × ١٦/٥سم ، وقد رمزنا لها في الهامش بالحرف «م» .

٢ ـ النّسخة الخطّيّة المحفوظة في المكتبة المركزيّة أيضاً ، ضمن مجموعة خطّيّة برقم ١٣٣٦٠ (الكتاب الخامس) ، بتأريخ ١١٠٤هـ ، جاء في آخرها : وكتب بيده الفانية الجانية فقير رحمة الله الغنيّ : عليّ بن زين الدّين بن محمّد بن الحسن بن المصنّف «قدّس الله أرواحهم» . تقع في ٤٦ ورقة ، تحتوي كلّ صفحة منها ١٧ سطراً ، بحجم ٢١ × ١٢/٥سم ، وهي ناقصة الصّفحة الأُولى منها وتبدأ من عبارة : إنّما يتمّ بالإقبال بالقلب . . . ، وقد رمزنا لها في الهامش بالحرف «ب» .

٣ ـ النّسخة الخطّيّة المحفوظة في مكتبة الدّكتور علي شريعتي العامّة في مشهد المقدّسة ، برقم ١٦ ألف ، مجهولة التّأريخ والنّاسخ ، تقع في ٤٤ ورقة ، تحتوي كلّ صفحة منها ١٩سطراً ، بحجم ١٩ × ١٣سم ، وقد رمزنا لها في الهامش بالحرف «د» .

٤ ـ النّسخة الحجرية المطبوعة ضمن كتاب «عشر رسائل للشّهيد الثّاني ـ قدّس سرّه» والّتي كانت ـ في رأيي ـ من أصحّ النّسخ ، وأقلّها خطأً رغم ما فيها من الإسقاط والتّحريف والتّصحيف .

منهجيّة التّحقيق :

لقد التزمت في تحقيقي لهذا الكتاب بكلّ ما يمكن الالتزام به ومراعاته من البحث عن النّسخ ، واختيار ماهو أجود منها ، والمقابلة ، وتخريج الآيات والرّوايات ،

وتقويم النّصّ وتوزيع فقراته وعباراته ، مع ترجمة ما جاء من أعلام فيه ، وتهيئة فهارسه الفنيّة وغيره ، فكان عملي فيه مقسّماً على عدّة مراحل ، نوردها كما يلي :

١ ــ لمّا كانت نسخ الكتاب ــ على كثرة الموجود منها ــ مستنسخة على نسخ أُخرى ، وليس لواحدة كثير فضل وامتياز على مثيلتها ، وكلّ منها كامل من جانب ، ناقص من جانب آخر ، مع ما فيها من إسقاط وتحريف وتصحيف ، فقد اعتمدت طريقة التّلفيق فيما بينها من أجل إثبات نصّ صحيح ؛ آمل أن يكون ــ بعد ذلك ــ أقرب لما تركه المصنّف «قدّس سرّه» .

٢ ــ تقطيع النّصّ ــ بعد استنساخه ــ وتوزيع فقراته بحسب اقتضاء الجمل والعبارات من النّسخة الحجريّة المطبوعة ، والّتي أشرنا إليها سلفاً .

٣ ــ مقابلة هذه النّسخة مع بقيّة النّسخ الثّلاث المعتمدة ــ كما مرّت ــ وتثبيت الاختلافات بينها .

٤ ــ تخريج الآيات القرآنيّة والأحاديث والرّوايات الشّريفة من مصادرها الأصليّة ، وربّما ــ في بعض الأحيان ــ من مصادر متأخّرة عن الشّهيد «قدّس سرّه» لعدم عثوري عليها في مصادر متقدّمة عنها .

٥ ــ ترجمة الأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب ، خلا الأئمّة المعصومين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» وذلك لشهرتهم وعدم الحاجة إلى التّعريف بهم .

٦ ــ تقويم متن الكتاب وضبط نصه وفق ما تقتضيه أحدث القواعد الإملائيّة ، مع ملاحظة جميع الاختلافات الواردة بين النّسخ الخطّيّة ، والإشارة لما يحتمل الصّحّة منها في الهامش والاّ طرحه واهماله .

٧ ــ شرح الألفاظ والكلمات الصّعبة في الكتاب من قواميس لغويّة معتبرة ، وإيرادبعض الفوائد والبيانات العلميّة في مواضع مناسبة من كتاب «بحار الأنوار» و «مجمع البحرين» و «**المحجّة البيضاء**» و «مرآة العقول» وغيرها في الهامش إتماماً

للفائدة.

٨ ــ تنزيل هامش الكتاب مستفيداً من كلّ ما أُنجز في المراحل التّحقيقيّة المتقدّمة وصياغة الكتاب بشكل فنّيّ.

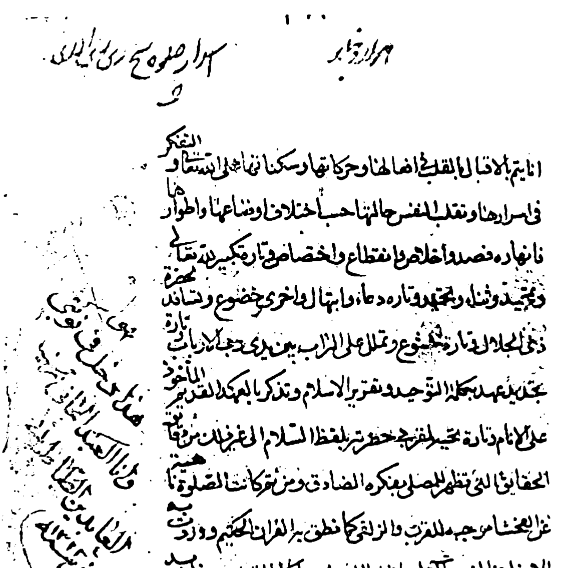
٩ ــ نظراً لأهمّيّة الفهرسة الفنّيّة وكونها ضرورة في إرشاد القارىء ومساعدته في استخراج المطالب الّتي يحتاجها، فقد قمت بتهيئة مجموعة من الفهارس الفنّيّة الّتي يضمّها الكتاب نفسه، وأدرجتها في نهايته.

ختاماً؛ أسأل الله تعالى أن يوفّقنا لإحياء تراث أئمّة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، وأن يتقبّل منّا هذا المجهود العلميّ المتواضع، آملاً أن يفتح الله تعالى به آذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً، وقلوباً غلفاً، وأن ينفعنا به ويجعله لنا زاداً نافعاً في آخرتنا وفي يوم حشرنا ومعادنا، إنّه سميع مجيب، والحمد لله ربّ العالمين.

صفاء الدّين البصريّ

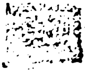
١٠ جمادى الآخرة مشهد الرّضا (ع)

نماذج من النسخ الخطية المعتمدة

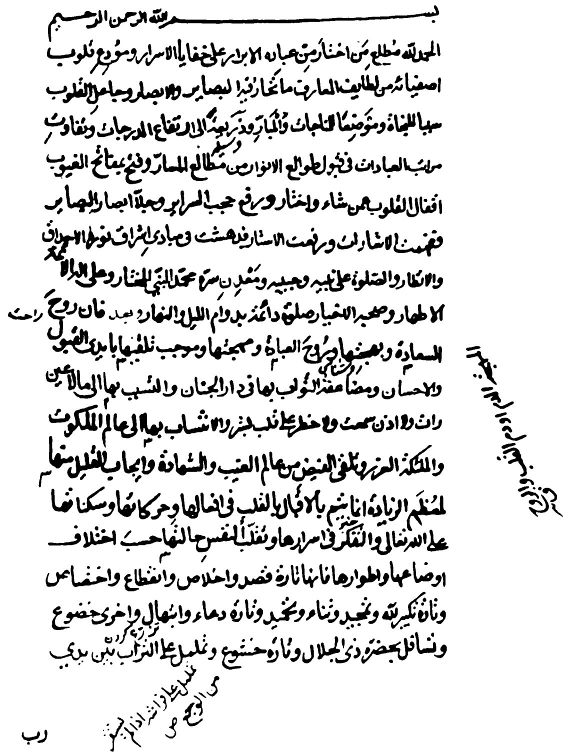

الا تتم بالاقبال بالقلب في افعالها وحركاتها وسكناتها على التفكر و
في اسرارها وتقلب النفس حالاتها حسب اختلاف اوضاعها واطوارها
فانها تارة قصد واخلاص وانقطاع واختصاص وتارة تكبير لله تعالى
وتحميد وثناء وتمجيد وتارة دعاء وابتهال واخرى خضوع وتذلل
لذي الجلال وتارة خشوع وتململ على التراب بين يدي رب الارباب وتارة
تجديد العهد بكلمة التوحيد وتقرير الاسلام وتذكير بالعهد المأخوذ
على الانام وتارة تحية المقربين بحضرتهم بلفظ السلام الى غير ذلك من
الحقائق التي تظهر للمصلي بفكره الصادق ومن ثم كانت الصلوة ناهية
عن الفحشاء موجبة للقرب والزلفى كما نطق به القرآن الكريم ووردت به
الاخبار عن النبي وآله عليهم افضل الصلوة واكمل التسليم
للمكلف المستنبط من الاقبال بقلبه عليها والتفكر في اسرارها
اذ بدونها كانت بمنزلة الجسد من غير روح والشجرة من غير ثمر والعمل
من غير غاية وقد ذكرنا في هذه الرسالة نبذة من اسرارها ونبذة من آدابها
واكثرها قد وردت به النصوص عن اهل الخصوص عليهم افضل الصلوة
واكمل التحيات ومراعاتها ترقى العابدين من مدارجها الى معارج الاسرار
والتجليات وهذه امور وان كانت مفرقة في تضاعيف النصوص و
كلام الكاملين من العلماء العاملين

صورة الصفحة الأولى من النسخة الخطيّة «م»

النذر والعهد ونحوهما فليستشعر بتولها والرغبة في القيام بها والاهتمام
بشأنها وفاء بعهد الله وامتثالا لامره ولا يتبرم بها توهما انها ليست
واجبة بالاصالة لم تفتقد لحقت بمثلها في العظمة والجلالة وليتمثل في نفسه
انه لو عاهد ملكا من ملوك الدنيا على عمل من الاعمال الحسية يكون بعمله اي
منه وسمع كيف يكون اقباله على عمله واجتهاده في اصلاحه واتقانه و
امتلاء قلبه منه ومراقبته لنظر الملك بمجرد الوعد فضلا عن توكيده بالعهد
فلا يجعل نظر الله سبحانه دون نظر عبيده فان ذلك عنوان النفاق في
وانموذج الشرك وهكذا يلاحظ وظيفة كل صلوة يحبها ويقوم بمهمتها
وادبها ولا يقتصر على ما بيناه من الوظايف بل يترقى بنظره الى ما يفتح الله
تعالى عليه من المعارف فان ابواب الفيض مفتوحة وانوار الجود هاطلة
مبذولة واصلة الى النفوس الانسانية على قدر استعدادها وفقنا الله
واياكم لتلقي الاسرار وادرجنا في عداد عباده الابرار واخذ بنواصينا
الى رضاه ورحمته وعاملنا بعفوه وكرمه ومغفرته واستعملنا بما علمنا و
اشركنا في ثواب من افدناه فان ذلك منوط به وله وهو حسبنا ونعم الوكيل
وهاهنا نقطع الكلام في هذه الرسالة حامدين لله تعالى على كل حال وفرغ
منها مؤلفها المفتقر الى عفو الله وكرمه ورحمته زين الدين بن علي بن احمد الشامي
العاملي عامله الله بلطفه وكتب بيده الفانية الجاسية فقير رحمة الله الغني علي بن
زين الدين بن محمد بن الحسن بن المصنف قدس الله
ارواحهم



صورة الصّفحة الأخيرة من النّسخة الخطّيّة «م»



بسم الله الرحمن الرحيم

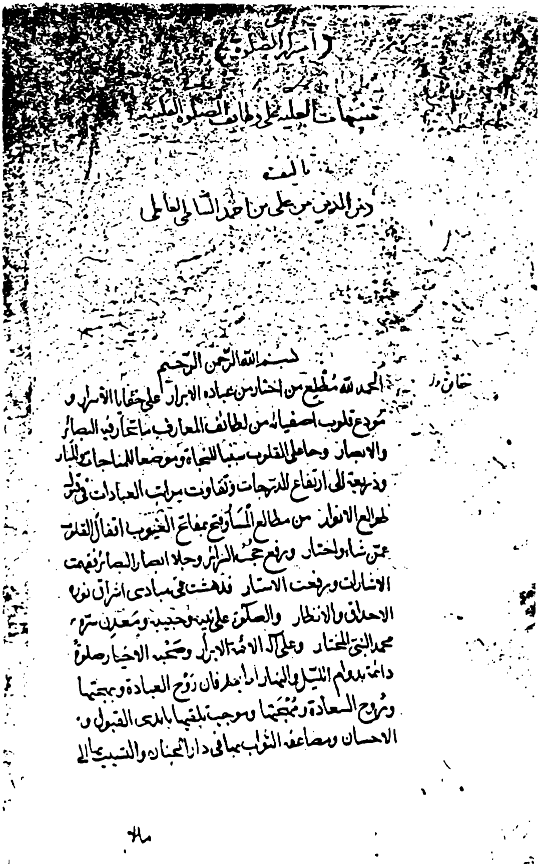
الحمد لله مطلع من اختار من عباده الابرار على خفايا الاسرار ومودع قلوب
اصفيائه من لطائف المعارف ما تحار فيها البصائر والابصار وجاعل القلوب
سببا للنجاة ومؤضعا للنجاة والبوار وذريعة الى ارتفاع الدرجات وتفاوت
مراتب العبادات في قبول طوالع الانوار من مطالع الاسرار وفتح مغاليق الغيوب
اقفال القلوب بمن شاء واختار ورفع حجب السرائر وجلا ابصار البصائر
فتهت الاشارات ورفعت الاستار فدهشت في مبادي اشراق نور الاحداق
والانظار والصلوة على نبيه وحبيبه ومعدن سره محمد النبي المختار وعلى آله
الاطهار وصحبه الاخيار صلوة دائمة بدوام الليل والنهار وبعد فان روح
السعادة وبعضها روح العبادة ومهجتها وموجب تلقيها بايدي القبول
والاحسان ومضاعفة التولع بها في دار الجنان والتسبب بها الى ما لا عين
رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والانشاب بها الى عالم الملكوت
والملكة العزيز وتلقي الفيض من عالم الغيب والشهادة وايجاب القليل منها
لمنظم الزيادة انما يتم بالاقبال بالقلب في افعالها وحركاتها وسكناتها
على الله تعالى والتفكر في اسرارها وتقلب النفس حالها حسب اختلاف
اوضاعها واطوارها فانها تارة قصر واخلاص وانقطاع واختصاص
وتارة تكبير لله وتمجيد وثناء وتحميد وتارة دعاء وابتهال واخرى خضوع
وتسائل بحضرة ذي الجلال وتارة خشوع وتململ على التراب بين يدي

رب

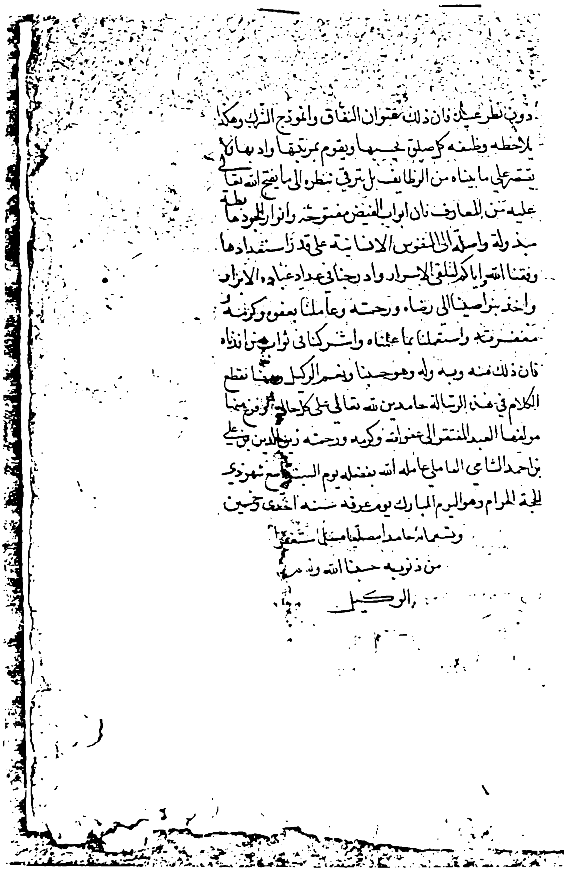
صورة الصفحة الأولى من النسخة الخطية «ب»

منه ولده واصلة الى النفوس الانسانية على قدر استعدادها وفقنا الله واياكم لتلقي
الاسرار وادرجنا في اعداد عباده الابرار واخذ بنواصينا الى رضاه ورحمته و
عاملنا بعفوه وكرمه ومغفرته واستعملنا بما علمناه واشركنا في ثواب من افدناه
فان ذلك منه وبه وله وهو حسبنا ونعم الوكيل وها هنا نقطع الكلام في هذه الرسالة
حامدين لله تعالى على كل حال وفرغ منها مؤلفها العبد الفقير الى عفو الله تعالى و
كرمه ورحمته زين الدين بن علي بن احمد الشامي العاملي عامله الله بلطفه يوم السبت
تاسع شهر ذي الحجة الحرام وهو اليوم المبارك يوم عرفة سنة احدى وخمسين
وتسعمائة حامداً مصلياً مسلماً مستغفراً وحسبنا الله ونعم الوكيل

صورة الصّفحة الأخيرة من النّسخة الخطّيّة «ب»



صورة الصفحة الأولى من النسخة الخطية «د»


دون نظر عليك فان ذلك عنوان النفاق وانموذج الشرك وهكذا
يلاحظه وظيفه كل صلاة بحسبها ويقوم بمرتبتها واد بها ولا
يقتصر على ما بيناه من الوظايف بل يترقى بنظره الى ما يفتح الله تعالى
عليه من المعارف فان ابواب الفيض مفتوحة وانوار الجود
مبذولة واصلة الى النفوس الانسانية على قدر استعدادها
وفقنا الله واياكم لتلقي الاسرار وادرجنا في عداد عباده الابرار
واخذ بنواصينا الى رضاه ورحمته وعاملنا بعفوه وكرمه و
مغفرته واستعملنا بما علمناه واشركنا في ثواب من اداه
فان ذلك منه وبه وله وهو حسبنا ونعم الوكيل وههنا نقطع
الكلام في هذه الرسالة حامدين لله تعالى على كل حال وفرغ منها
مولفها العبد المفتقر الى عفو الله وكرمه ورحمته زين الدين بن علي
بن احمد الشامي العاملي عامله الله بفضله يوم السبت تاسع شهر ذي
الحجة الحرام وهو اليوم المبارك يوم عرفه سنة اثنين وخمسين
وتسعماية حامدا مصليا مسلما مستغفرا
من ذنوبه حسبنا الله ونعم
الوكيل

صورة الصّفحة الأخيرة من النّسخة الخطّيّة «د»

التنبيهات العلية

على وظائف الصلاة القلبية

تأليف

زين الدين الجبعي العاملي (الشهيد الثاني)

[٩١١ - ٩٦٦ هـ]

تحقيق

صفاء الدين البصري

عضو مجمع البحوث الإسلامية

مقدّمة المصنّف

المُقَدَمَة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله مطلع من اختار من عباده الأ برار، على حقائق[1] الأسرار، ومودِع قلوب أصفيائه من لطائف المعارف، ما تَحار فيه البصائر والأ بصار، وجاعل القلوب سبباً للنّجاة، ومَوضعاً للمناجاة والمبار، وذريعة الى ارتفاع الدّرجات، وتفاوت مراتب العبادات، في قبول طوالع الأنوار، من مطلع[2] المسار، فتح بمفاتيح[3] الغيوب، أقفال القلوب، عمّن شاء واختار، ورفع حُجُب السّرائر، وجلا أبصار البصائر، ففهمت الإشارات، ورفعت الأستار، فدهشت في مبادي إشراق نوره الأحداق والأنظار، والصّلاة على نبيّه وحبيبه ومعدِن سرّه محمّد النّبيّ المختار، وعلى آله الأئمّة الأ برار[4]، وصحبه الأخيار، صلاة دائمة بدوام اللّيل والنّهار.

أمّا[5] بَـعْـدُ[6]، فإنّ روح السّعادة و بهجتها[7]، وروح العبادة

---

(١) «د»: خفايا.

(٢) «د»: مطالع.

(٣) «د» «م»: بمفاتح.

(٤) «م»: الأطهار.

(٥) «م»: و.

(٦) وبَعْدُ: ظرف مبهم من ظروف الزّمان، لا يُفهم معناه إلّا بالإضافة لغيره، وقد تكرّر في كلام ←

ومُهجتها(١) ، وموجب تلقّيها بأيدي القبول والإحسان ، ومضاعفة الثّواب بها في دار الجنان ، والتّسبّب بها إلى ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والانتساب بها إلى عالم الملكوت والملائكة الغُرَر ، وتلقّي الفيض من عالم الغيب والشّهادة وإيجاب القليل منها لعظيم(٢) الزّيادة ؛ إنّما يتمّ بالإقبال بالقلب في أفعالها وحركاتها وسكناتها على الله تعالى ، والتّفكّر في أسرارها ، وتقلّب النّفس حالاتها(٣) حسب اختلاف أوضاعها ، وأطوارها .

فإنّها تارة : قصد وإخلاص ، وانقطاع واختصاص .

وتارة : تكبير لله تعالى وتمجيد وثناء وتحميد .

وتارة : دعاء وابتهال .

وأُخرى : خضوع وتسافل(٤)(٥) بحضرة ذي الجلال .

← الفُصحاء «أمّا بَعْدُ» وهي كلمة تسمّى فصل الخطاب، يستعملها المتكلّم إذا أراد الانتقال من كلام إلى آخر. قيل: أوّل من تكلّم بها داود؛ واليه الإشارة بقوله تعالى: «وآتيناهُ الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب» يعني: أمّا بعد. وقيل: أوّل من قالَها عليّ عليه السلام، لأنّها أوّل ما عُرفت من كلامه وخُطبه. وقيل: قُسّ بن ساعدة الأياديّ حكيم العرب؛ لقوله:

لَقَدْ عَلِمَ الحَيُّ اليَمانُونَ أنّني إذَا قِيلَ أمّا بَعْدُ أنّي خَطيبُها

أي: خطيب «أمّا بَعْدُ»، ومعناها: مهما يكن من شيء بعد كذا، فكذا. مجمع البحرين ١: ٢١٩ مادّة (بعد).

(٧) البَهْجَة: السّرور، ومنه الدّعاء: «وبهجةٍ لا تُشْبِهُ بَهَجاتِ الدُّنيا» أي: مسرّة لا تشبه مسرّات الدّنيا، مجمع البحرين ١: ٢٥٦ مادة (بهج).

(١) المُهْجَة: دم القلب والرّوح، ومنه يُقال: خرجت مُهجتُه، إذا خرجت روحُه. مجمع البحرين ٢: ٢٤٢ مادّة (مهج).

(٢) «م»: لمعظم.

(٣) «ب» «م»: حالتها.

(٤) «ح» «د»: تشاغل.

(٥) التّسفّل: نقيض العلوّ. مجمع البحرين ١: ٣٨٣ مادّة (سفل). والمراد منه: تحقير النّفس واعتبارها لا شيء أمام عظمة الله تعالى.

وتارة : خشوع وتململ[١] على التّراب ، بين يدي ربّ الأرباب .

وتارة : تجديد عهد بكلمة التّوحيد ، وتقرير الإسلام ، وتذكير[٢] بالعهد القديم المأخوذ على الأنام[٣] .

وتارة : تحيّة لمقرّبي حضرته بلفظ السّلام ، إلى غير ذلك من دقائق الحقائق ، الّتي تظهر للمصلّي بفكره الصّادق .

ومن ثمّ كانت الصّلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، موجبة للقرب والزّلفى ؛ كما نطقَ به القرآن الحكيم[٤] ، ووردت به الأخبار عن النّبيّ وآله ، عليهم أفضل الصّلاة وأكمل التّسليم[٥] .

وحينئذٍ ؛ فلا بدّ للمكلّف المستيقظ[٦] من الإقبال بقلبه عليها ، والتّفكّر في

---

(١) التَمَلْمُلْ : التقلقل من الألم ، ومنه الحديث : «يتململ تململ السّليم» ، ومنه حديث عليّ بن الحسين عليه السّلام : كان ليلة من اللّيالي متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يتململ ؛ ويقول :

يا ذا المعالي عليك مُعتمدي ... طُوبى لعبدٍ تكونُ مَوْلاهْ

طُوبى لمن باتَ خائفاً وجِلاً ... يَشكو إلى ذي الجَلال بَلْواهْ

إذا خَلا في الظّلام مُبتهلاً ... أكرمه ربُّه ولَبّاهْ

نقل أنّ هاتفاً أجابه يقول :

لبّيك لبّيك أنت في كَنَفي ... وكلّما قُلتَ قد سمعناهُ

صوتُك تشتاقُه ملائكتي ... وعُذرُك اليوم قد قبِلْناهُ

اسألْ بلا دَهشةٍ ولا وَجَلٍ ... ولا تَخفْ إنّني أنا اللهُ

مجمع البحرين : ٢ : ٢٣٣ مادّة (ململ) .

(٢) «ب» : تذكّر .

(٣) العهد الّذي أخذه الله تعالى على بني آدم في قوله تعالى : «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» يس : ٦٠ .

(٤) العنكبوت : ٤٥ .

(٥) مجمع البيان ٤ : ٢٨٥ .

(٦) «ب» : المستنبط .

أسرارها ، والتّأدّب بآدابها ، وإلّا كانت بمنزلة الجسد من غير روح ، والشّجرة من غير ثمرة ، والعمل من غير غاية .

وقد ذكرنا في هذه الرّسالة نبذة من أسرارها ، وزبدة من آدابها ، وأكثرها قد وردت به النّصوص ، عن أهل الخصوص ، عليهم أفضل الصّلاة[١] وأكمل التّحيّات ، وبمراعاتها يرتقي[٢] القابل من مدارجها إلى معارج الأسرار والتّجلّيات .

وهذه أمور[٣] وإن كانت متفرّقة[٤] في تضاعيف النّصوص ، وكلام الكاملين من العلماء العاملين ، لكن لا يكاد تجتمع أطرافه إلّا عند قليل من الأماجد ، ولا يطّلع على معادنه إلّا واحدٌ بعد واحد ، فشاركتهم في مثوبته ؛ بجمع أطرافه ومبانيه ، وتهذيب ترتيبه ، وتقريب معانيه ، وصارت مع ذلك معزّزة[٥] للرّسالتَين الشّريفتَين اللّتَين اشتملت إحداهما على واجبات الصّلاة ، وهي **«الألفيّة»**[٦] والأُخرى على مندوباتها ، وهي **«النّفليّة»**[٧] وهذه على أسرارها

---

(١) «د» : الصّلوات.

(٢) «د» : يترقّى.

(٣) «ح» : الأُمور.

(٤) «ب» : مفرّقة.

(٥) في بعض النّسخ : مقرّرة.

(٦) «الألفيّة» كتاب صغير يشتمل على بيان ألف واجب في الصّلاة، مرتّب على مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة. وهو من مؤلّفات الشّهيد الأوّل الشّيخ محمّد بن مكّي العامليّ ــ قدس الله روحه ــ وعلى هذا الكتاب ــ رغم وجازته ــ شروح كثيرة ؛ ذكرَ في الذّريعة ما يقرب من خمسين شرحاً. وقد شرح الشّهيد الثّاني ــ قدّس الله روحه ــ هذا الكتاب ثلاث مرّات ؛ فالشّرح الكبير اسمه : «المقاصد العليّة في شرح الألفيّة» وهو شرح كبير استدلاليّ ، كتبَ الشّهيد أيضاً عليه بعض الحواشي فيما بعد. و «الشّرح الوسيط» واقتصر فيه على أهمّ المسائل، ولم يتوسّع فيه كثيراً. و «الشّرح الصّغير» وهو تعليقات وشروح وحواش فتوائيّة ؛ كتبه لعمل المقلّدين الّذين يرجعون إليه في المسائل الشّرعيّة. الذّريعة ٦ : ٢٣ بتصرّف.

(٧) «النّفليّة» كتاب يشتمل على بيان ثلاثة آلاف نافلة في الصّلاة، وهو أيضاً من مؤلّفات الشّهيد ←

القلبيّة ، وسمّيتها بـ«**التّنبيهات العليّة ، على وظائف الصّلاة القلبيّة**» ورتّبتها ترتيب القادِمة ؛ على مقدّمة ، وفصول ثلاثة ، وخاتمة .

→

الأوّل، ألّفه بعد «الألفيّة»، وعليه — هو الآخر— شروح كثيرة، منها: شرح الشّهيد الثّاني المسمّى بـ«الفوائد الملكيّة» وهو شرح مزجيّ مختصر، وربّما تطرّق إلى استعراض بعض الأدلّة.

المقدّمة

أمّا المقدّمة ؛ فتشتمل على ثلاثة مطالب .

الأوّل : في تحقيق معنى القلب الّذي ينبغي إحضاره في أوقات العبادات ، وبسببه تتفاوت مراتب العبادات[1] في الدّرجات .

اعلم أنّ القلب يُطلق على معنيَيْن :

أحدهما : اللّحم الصّنوبريّ الشّكل ، المودَع في الجانب الأيسر من الصّدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التّجويف دم أسود ، وهو منبع الرّوح ومعدنه . وهذا المعنى من القلب موجود للبهائم ، بل للميّت ، وليس هو المراد في هذا الباب ونظائره .

والمعنى الثّاني : لطيفة ربّانيّة روحانيّة ، لها بهذا القلب الجسمانيّ تعلّق ، وتلك اللّطيفة هي المعبّر عنها بـ«**القلب**» تارة ، وبـ«**النّفس**» أُخرى ، وبـ«**الرّوح**» أُخرى ، وبـ«**الإنسان**» أيضاً . وهي المدرِك بالعالَم[2] ، العارف[3] ، وهي المخاطَب ، والمطالَب ، والمعاتَب ، ولها علاقة مع القلب الجسدانيّ[4] ، وقد تَحير[5]

---

(١) «د» : العبادة، «م» : العباد.

(٢) «د» «م» : العالم، «ب» : لعالم.

(٣) «ب» : المعارف.

(٤) «ب» : الجسمانيّ.

(٥) «ب» : تحيّرت.

عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ، وأنّ تعلّقه به يضاهي تعلّق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلّق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلّق المتمكّن بالمكان . وشرح ذلك يخرج عن غرض الرّسالة .

وحيث يُطلق القلب في الكتاب والسّنّة ؛ فالمراد منه هذا المعنى الّذي يُفقه ويُعلم ، وقد يكنّى عنه بـ«القلب في الصّدر» كما قال الله تعالى : «**فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**»(١) وذلك لِما عرفت من العلاقة الواقعة بينه وبين جسم القلب ، فإنّها وإن كانت متعلّقة بسائر البدن ، ومستعملة له ، ولكنّها تتعلّق به بواسطة القلب ، فتعلّقها الأوّل بالقلب وكأنّه محلّه ، ومملكته ، وعالَمُه ، ومطيّته .

ولذلك شبّه بعضُ العلماء القلب بالعرش ، والصّدر بالكرسيّ ، وأراد به أنّه مملكته ، والمُجري الأوّل لتدبيره وتصرّفه ، فهما بالنّسبة إليه كالعرش والكرسيّ بالنّسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التّشبيه إلّا من بعض الوجوه ؛ كما لا يَخفى .

وهذا المعنى من القلب في الجسد بمنزلة الملك ، وله فيه جنود وأعوان ، وأضداد وأوصاف ، وله قبول للإشراق والظّلمة ، كالمرآة الصّافية الّتي تقبل انطباع الصّور والأشكال المقابلة لها ، وتقبل الظّلمة والفساد(٢) ، والبُعد عن الأعداد لذلك ، بسبب العوارض الخارجيّة المنافية لجوهرها ، ورُبّما وصل إشراقه واستنارته إلى حدٍّ يحصل فيه جليّة الحقّ ، وتنكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب .

وإلى مثل هذا القلب الإشارة(٣) بقوله صلّى الله عليه وآله : (إذَا أرادَ اللهُ بعبدٍ خَيراً جعل له واعظاً من قلبِه)(٤) .

---

(١) الحج : ٤٦.

(٢) «ب» : الإفساد.

(٣) «د» «م» : أشار.

(٤) نهج الفصاحة : ٢٩ حديث ١٥٤، كنز العمّال ١١ : ٩٥ حديث ٣٠٧٦٢.

وبقوله صلّى الله عليه وآله: (من كان لَهُ من قلبِه واعظٌ، كان عليه من الله حافظ)(١).

ومثال الآثار المذمومة الواصلة إليه المانعة له من الاستنارة وقبول الأسرار؛ مثال(٢) دخان مظلِم يتصاعد إلى مرآة، ولا يزال يتراكم عليه مرّة بعد أُخرى، إلى أن يسودّ و يظلمّ، و يصير بالكلّيّة محجوباً عن الله تعالى، وهو الطّبع والرّين الّذين أشار الله تعالى إليهما في قوله: «أنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ»(٣) ربط عدم السّماع والطّبع بالذّنوب، كما ربط السّماع بالتّقوى في قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا»(٤) «وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ»(٥).

وقال الله تعالى: «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»(٦) فمَهما تراكمت الذّنوب طبع على القلب، وعند ذلك يعمى عن إدراك الحقّ وصلاح الدّين، ويتهاون بالآخرة، و يستعظم أمر الدّنيا، ويصير مقصور الهمّ عليه، وإذا قرَع سمعه أمرُ الآخرة وما فيها من الأخطار، دخل من أُذُن وخرج من الأُخرى(٧)، ولم يستقرّ في القلب، ولم يحرّكه(٨) إلى التّوبة والتّدارك.

وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذّنوب: كما نطق به القرآن والسّنّة؛ كما في قوله صلّى الله عليه وآله: (قلبُ المؤمن أجرَد، فيه سراج يزهر، وقلب الكافر

(١) سفينة البحار ١: ٦١٣.
(٢) «ب»: مَثل.
(٣) الأعراف: ١٠٠.
(٤) المائدة: ١٠٨.
(٥) البقرة: ٢٨٢.
(٦) المطفّفين: ١٤.
(٧) «ب»: أُخرىٰ.
(٨) «م»: يحرّك.

أسود، منكوس)[١].

وقول الباقر عليه السّلام: (إنّ القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير؛ وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء؛ فالخير والشّرّ فيه يختلجان؛ فأيّهما [كانت منه][٢] غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر، لا يُطفأ نوره إلى يوم القيامة؛ [وهو قلب المؤمن][٣][٤].

فانظر إلى قوله عليه السّلام: (لا يُطفأ نوره إلى يوم القيامة) فإنّ هذا حكم نور القلب بالمعنى الثّاني، لأنّه باقٍ وإن خرُب البدن، بخلاف الأوّل: كما حُقّق في موضع آخر.

وروى زرارة[٥] عن أبي جعفر عليه السّلام، قال: (ما من عبدٍ إلّا وفي قلبه نقطة بيضاء، فإن أذنب ذنباً خرج في[٦] النّكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السّواد، وإن تمادى في الذّنوب زاد ذلك السّواد حتّى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»)[٧][٨].

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٧، بحار الأنوار ٧٠: ٥٩ وفيه: يزهو.

(٢) «م»: كان فيه.

(٣) أضفناه من المصدر.

(٤) الكافي ٢: ٤٢٣ حديث ٣ وفيه: يعتلجان، بحار الأنوار ٧٠: ٥١ بتفاوت يسير.

(٥) زرارة بن أعين بن سُنْسُن، وقيل: سُنبس؛ قال ابن النّديم: زرارة لقب، واسمه: عبد ربّه بن أعين، أبوعليّ: أكبر رجال الشّيعة فقهاً، وحديثاً، ومعرفةً بالكلام والتّشيّع. وقال النّجاشيّ: شيخ أصحابنا في زمانه، ومتقدّمهم، وكان قارئاً، فقيهاً، متكلّماً، شاعراً، أديباً. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله تارة من أصحاب الإمام الباقر عليه السّلام، وأُخرى من أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام، وثالثة من أصحاب الإمام الكاظم عليه السّلام. مات سنة ١٥٠هـ. رجال النّجاشيّ: ١٧٥، رجال الطّوسيّ: ١٢٣، ٢٠١، ٣٥٠، الفهرست لابن النّديم: ٣٠٨، تنقيح المقال ١: ٤٣٨.

(٦) «د»: من.

(٧) المطفّفين: ١٤.

(٨) الكافي ٢: ٢٧٣ حديث ٢٠، نوادر الرّاوندي ٥: ٥٣٢.

وقال الله تعالى : «إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ»(١) فأخبر أنّ جلاء القلب يحصل بالذّكر، وأنّ المتقين هم المتذكّرون ؛ فالتّقوى : باب الذّكر، والذّكر: باب الكشف ، والكشف : باب الفوز الأكبر.

واعلم أنّ القلب مثاله مثال حصن ، والشّيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن ويملكه(٢) و يستولي عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلّا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواقع تهمه . فينبغي الاهتمام بمعرفة ذلك ، وتفصيله ممّا يطول الكلام فيه ، ويخرج عن الغرض .

والأمر الجامع له : الإقبال على الله تعالى ، وتخيّل(٣) أنّك(٤) واقف بين يديه ؛ فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ؛ كما ورد في الخبر(٥) . فاذا أشعرت بذلك وتحقّقته ، وعملتَ(٦) به انسدّت الأبواب دون وساوس اللّعين ، وأقبل القلب على الله تعالى ، وتفرّغ للعبادة ، وقد ورد(٧) عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : (إنّ العبدَ إذا اشتغل بالصّلاة جاءه الشّيطانُ وقال له اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتّى يظلّ الرّجل أن يدري كم صلّى)(٨) .

---

(١) الأعراف : ٢٠١.

(٢) «م» : يهلكه.

(٣) «ح» : تخييل.

(٤) «ب» «م» : أنّه.

(٥) صحيح البخاري ١ : ٢٠ باب سؤال جبرئيل النبيّ صلّى الله عليه وآله عن الإيمان والإسلام والاحسان وعلم السّاعة، مسند أحمد ٢ : ٤٢٦، عوالي اللّئالئ ١ : ٤٠٥ حديث ٦٥، المحاسن ١ : ٣ حديث ٣.

(٦) «م» : علمتَ.

(٧) «ب» «د» «م» : روي.

(٨) ورد مايُناسب ذلك في الوسائل ٥ : ٣٢٩ الباب ١٦ من أبواب الخلل الواقع في الصّلاة.

ومن هنا[١] ظهر لك أنّ مجرّد التّلفّظ بالذّكر باللّسان ليس هو الزّاجر للشّيطان، بل لا بدّ معه من عمارة القلب بالتّقوى، وتطهيره من الصّفات المذمومة الّتي هي أعوان إبليس وجنده[٢]، وإلّا فالذّكر من أقوى مداخل الشّيطان، وكذلك غيره من العبادات؛ ولذلك قال الله تعالى: «**إنّ الّذينَ اتّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ مِنَ الشّيْطانِ تَذَكّرُوا فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ**»[٣].

فخصّص ذلك بالمتّقي.

وتأمّل أنت في مُنتهى ذكرك وعبادتك وأفضل أعمالك وهو الصّلاة فليس الخبر كالعيان، فراقب قلبك إذا كنت في الصّلاة كيف [يتجاذبه[٤] الشّيطان][٥] في الأسواق والبساتين وحساب المعاملين[٦] وجواب المعاندين وغيرهم، وكيف يمرّ[٧] بك في أودية الدّنيا ومهالكها، حتّى أنّك لا تتذكّر[٨] مانسيته من فضول الدّنيا إلّا في صلاتك، ولا [يزدحم الشّيطان][٩] على قلبك إلّا إذا صلّيت، فلا جرم لا يطرد عنك الشّيطان بمجرّد صورة العبادة، وإن تأدّى بها الواجب عليك[١٠]، وخرجت من عهدة الأمر الإلهيّ، بل لابدّ في دفعه ــ مع ذلك ــ من أصول أُخر،

---

(١) «ب» «د» «م»: هاهنا.

(٢) «ح»: جنوده.

(٣) الأعراف: ٢٠١.

(٤) «د» «م»: تتجاذبه.

(٥) «ب» «د»: الشّياطين.

(٦) «د» «ب»: العالمين.

(٧) «د» «م»: تمرّ.

(٨) «م»: تذكر.

(٩) «ب» «م»: تزدحم الشّياطين.

(١٠) ليست في «م».

وإصلاح الباطن من الرّذائل الّتي هي أعوانه وجُنده، وإلّا لم يزد[١] إلّا ضرراً[٢]؛ كما أنّ الدّواء قبل الاحتماء[٣] لا يزيد المريض إلّا مرضاً وألماً.

ثمّ بعد ذلك يتّصف بالفضائل، وحينئذ يصير قلبه قابلاً للإقبال، مُشفِقاً من التّفريط والإهمال، قال الله تعالى: **«أَلَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ»**[٤].

فاجعل هذه العلامة بينك وبين استقامة قلبك وإقباله. أوقَفنا[٥] الله وإيّاك على بساط الاستقامة بمحمّد وآله، ولنقتصر من بحث القلب على هذا القدر، مناسبة للاختصار.

---

(١) «ب»: تزد.

(٢) «م»: أضراراً.

(٣) «م»: احتمائه.

(٤) الرّعد: ٢٨.

(٥) «م»: وفّقنا.

المطلب الثّاني

في الاستشهاد على ما ينبغي من إحضار القلب في حال العبادة، سيّما الصّلاة الّتي هي عمود الدّين، ورأس الأعمال.

قال الله تعالى: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ»(١) وقال تعالى: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ»(٢) ذمّهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلّين، لا لأنّهم سهوا عنها وتركوها.

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة»(٣) أي: يفعلونه في حال وجل قلوبهم، والاتّصاف بالوجل حالة العمل مستلزم لحضور القلب على أتمّ وجه.

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (الصّلاة ميزان، من وفى استوفى)(٤).

وقال صلّى الله عليه وآله: (اعبد الله كأنّك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)(٥).

---

(١) المؤمنون: ٢.

(٢) الماعون: ٥.

(٣) المؤمنون: ٦٠.

(٤) إحياء علوم الّدين ١: ٢٦٤، الكافي ٣: ٢٦٧ حديث ١٣، الفقيه ١: ٣٣ حديث ٦٢٢، الوسائل ٣: ٢٢ الباب ٨ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، الحديث ٨

(٥) عوالي اللّئالي ١: ٤٠٥ حديث ٦٥، المحاسن ١: ٣ حديث

وقال صلّى الله عليه وآله في فضل إتمامها: (إنّ الرّجلَين من أُمّتي يقومان في الصّلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وانّ ما بين صلاتَيهما ما بين السّماء والأرض)(١).

وقال صلّى الله عليه وآله: (أمَا يَخافُ الّذي يحوّل وجهه في الصّلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار)(٢).

وقال صلّى الله عليه وآله: (من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدّنيا، غفر الله له ذنوبه)(٣).

وعنه صلّى الله عليه وآله: (من حبس نفسه في صلاة فريضه فأتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها ثمّ مجّد الله عزّ وجلّ وعظّمه وحمّده حتّى يدخل وقت صلاة أُخرى لم يلغ بينهما، كتب الله له كأجر الحاج المعتمر، وكان من أهل علّيّين)(٤).

وعنه صلّى الله عليه وآله: (إنّ من الصّلاة لَما يُقبل نصفُها وثلثُها وربعُها وخمسُها، إلى العُشر، وإنّ منها لَما تُلفُّ(٥) كما يلف الثّوبُ الخَلِقُ فيضرب بها وجه صاحبها، وان مالك من صلاتك ألّا ما أقبلت عليه بقلبك)(٦).

وعن أبي جعفر عليه السّلام، قال: (قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إذا قام العبد المؤمن في صلاته، نظر الله إليه ــ أو قال ــ أقبل الله عليه حتّى ينصرف،

---

(١) إحياء علوم الدّين ١: ٢٦٤، عوالي اللّئالئ ١: ٣٢٢ حديث ٥٧، المحجّة البيضاء ١: ٣٤١.

(٢) إحياء علوم الدّين ١: ٢٦٤، مسند أحمد ٢: ٤٧٢، ٢٦٠، ٤٦٩، ٥٠٤، ٤٥٦ واللّفظ فيه: (أما يخاف الّذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل رأسه رأس حمار). عوالي اللّئالئ ١: ٣٢٢ حديث ٥٨.

(٣) ثواب الأعمال: ٤٤، عوالي اللّئالئ ١: ٣٢٣ حديث ٥٩.

(٤) الفقيه ١: ١٣٦ حديث ٦٤٢، المحجّة البيضاء ١: ٣٤٠.

(٥) «ب» «د»: يلف.

(٦) عوالي اللّئالئ ١: ٤١١ حديث ٧٨ بتفاوت يسير، وأورد في الوسائل شطراً منه ج ٤: ٦٨٧ الباب ٣ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ١.

وأظلّته الرّحمة من فوق رأسه إلى أُفُق السّماء، والملائكة تحفّه من حوله إلى أُفق السّماء، ووكّل الله به ملَكاً قائماً على رأسه، يقول: أيّها المصلّي لو تعلم من ينظر إليك ومن تُناجي ما التفتّ ولا زلت من موضعك أبداً)[١].

وقال الصّادق عليه السّلام: (لا تجتمع الرّغبة والرّهبة في قلب إلّا وجبت له الجنّة، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك على الله عزّ وجلّ، فإنّه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عزّ وجلّ في صلاته ودعائه، إلّا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين [إليه][٢] وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنّة)[٣].

وعن أبي حمزة الثّماليّ[٤]، قال: رأيت عليّ بن الحُسين عليه[٥] السّلام يصلّي، فسقط رداؤه عن منكبه، فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال: (ويحك، أتدري بين يدَي من كُنتُ؟ إنّ العبد لا يُقبل منه صلاة إلّا ما أقبل فيها)[٦] فقلت: جُعلتُ فداك، هلكنا؟ فقال: (كلاّ، إنّ الله يتمّ[٧] ذلك بالنّوافل)[٨].

(١) الكافي ٣: ٢٦٥ حديث ٥، الوسائل ٣: ٢١ الباب ٨ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٥.

(٢) أضفناه من المصدر.

(٣) الفقيه ١: ١٣٥ حديث ٦٣٢، الوسائل ٤: ٦٨٧ الباب ٣ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ٣.

(٤) هو: ثابت بن أبي صفيّة: أبوحمزة الثّماليّ، واسم أبي صفيّة: دينار، مولى، كوفيّ، ثقة، لقي عليّ بن الحسين، وأبا جعفر، وأبا عبد الله، وأبا الحسن عليهم السّلام، وكان من خيار أصحابنا وثقاتهم ومعتمديهم، قاله النّجاشيّ. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله من أصحاب الأئمّة: السّجّاد، والباقر، والصّادق عليهم السّلام، وقال عند تعداده في أصحاب الإمام الكاظم عليه السّلام: اختُلِفَ في بقائه إلى وقت أبي الحسن موسى عليه السّلام. مات سنة ١٥٠هـ. رجال النّجاشيّ: ١١٥، رجال الطّوسي: ٨٤، ١١٠، ١٦٠، ٣٤٥.

(٥) «ب» «د»: عليهما.

(٦) «ب»: عليها، وفي المصدر: منها.

(٧) في الوسائل: متمّم، وفي التّهذيب: يتمّم.

(٨) علل الشّرائع: ٢٣٢ حديث ٨، التّهذيب ٢: ٣٤٢ حديث ١٤١٥ وفيه: رداه عن منكبيه، الوسائل ٤: ٦٨٨ الباب ٣ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ٦.

وعن الفُضيل بن يسار[١]، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السّلام؛ أنّهما قالا: (إنّما لك من صلاتك إلاّ ما أقبلتَ عليه فيها، فإن أوهمها كلها أو غفل عن أدائها[٢]، لُفَّتْ فضُرب بها وجهُ صاحبها)[٣].

وروى زرارة، عن أبي جعفر عليه السّلام، قال: (إذا قمت في الصّلاة فعليك بالإقبال على صلاتك، فإنّما لك منها إلاّ ما أقبلت عليه[٤] ولا تعبث فيها بيديك، ولا برأسك، ولا بلحيتك، ولا تحدّث نفسك، ولا تتثاّب فيها، ولا تتمطّ...)[٥].

وروى الحلبيّ[٦]، عن أبي عبد الله عليه السّلام، قال: (إذا كنت في صلاتك، فعليك بالخشوع والإقبال على صلاتك، فإنّ الله تعالى يقول: «ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ»[٧][٨].

---

(١) أبوالقاسم: الفُضيل بن يسار النّهديّ، أصله كوفيّ، نزيل البصرة، ثقة، وممّن أجمعت العصابة على تصديقه. وقيل: يكنى: أبا ميسور، من أصحاب الإمامَين الباقر والصّادق عليهما السّلام، ومات في أيّامه. رجال النّجاشيّ: ٣٠٩، رجال الطّوسيّ: ١٣٢، ٢٧١ رجال الكشّيّ: ٢٣٨.

(٢) «ح» «م» «د»: آدابها.

(٣) الكافي ٣: ٣٦٣ حديث ٤، التّهذيب ٢: ٣٤٢ حديث ١٤١٧، الوسائل ٤: ٦٨٧ الباب ٣ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ١.

(٤) «ح» «د» زيادة: بقلبك.

(٥) الكافي ٣: ٢٩٩ حديث ١، الوسائل ٤: ٦٧٧ الباب ١ من ابواب أفعال الصّلاة، الحديث ٥.

(٦) هو: عبيد الله بن عليّ بن أبي شعبة الحلبيّ، مولى بني تيم اللاّت بن ثعلبة؛ أبو عليّ، كوفيّ، يتّجر هو وأبوه وإخوته إلى حلب؛ فغلب عليهم النّسبة إلى حلب. وآل أبي شعبة بالكوفة بيت مذكور من اصحابنا، وروى جدّهم أبوشعبة عن الحسن والحسين عليهما السّلام، وكانوا جميعهم ثقاة، وكان عبيد الله كبيرهم ووجههم، صنّف الكتاب المنسوب إليه وعرضه على الصّادق عليه السّلام وصحّحه واستحسنه، وقال عند قراءته: (ليس لهؤلاء في الفقه مثله) وهو أوّل كتاب صنّفه الشّيعة. عدّه الشّيخ الطّوسيّ من أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام. رجال النّجاشيّ: ٢٣٠، رجال الطّوسيّ: ٢٢٩، الفهرست: ١٠٦، جامع الرّواة ١: ٥٢٩، تنقيح المقال ٢: ٢٤٠.

(٧) المؤمنون: ٢.

(٨) الكافي ٣: ٣٠٠ حديث ٣، الوسائل ٤: ٦٨٤ الباب ٢ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ١.

وعنه عليه السّلام قال: (كان عليّ بن الحسين عليه[١] السّلام إذا قام إلى الصّلاة تغيّر لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفضّ عرقاً)[٢].

و (كان عليه السّلام إذا قام في الصّلاة كأنّه ساق شجرة؛ لا يتحرّك منه إلّا ما حرّكت الرّيح منه)[٣].

وعن أبي جعفر عليه السّلام قال: (إنّ أوّل ما يُحاسب به العبد الصّلاة، فإن قبلت قبل ما سواها؛ إنّ الصّلاة إذا ارتفعت في [أوّل][٤] وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة، تقول: حفظتني، حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيّعتني ضيّعك الله)[٥].

وروى العيص بن القاسم[٦]، عن أبي عبد الله عليه السّلام أنّه قال: (والله إنّه ليأتي على الرّجل خمسون سنة وما قبل الله منه صلاة واحدة، فأيّ شيء أشدّ من هذا؟ والله إنّكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم مَن لو كان يُصلّي لبعضكم ما قبلها منه، لاستخفافه بها، إنّ الله [عزّ وجلّ][٧] لا يقبل إلّا الحسن، فكيف يقبل

---

(١) «د»: عليهما.

(٢) الكافي ٣: ٣٠٠ حديث ٥، التّهذيب ٢: ٢٨٦ حديث ١١٤٥، الوسائل ٤: ٦٨٥ الباب ٢ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ٢.

(٣) الكافي ٣: ٣٠٠ حديث ٤، الوسائل ٤: ٦٨٥ الباب ٢ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ٣ وفيه: لا يتحرّك منه شيء إلّا ما حرّكت...

(٤) أضفناه من المصدر.

(٥) الكافي ٣: ٢٦٨ حديث ٤، التّهذيب ٢: ٢٣٩ حديث ٩٤٦، الوسائل ٣: ٧٨ الباب ١ من أبواب المواقيت، الحديث ٢.

(٦) هو: عيص بن القاسم بن ثابت بن عبيد بن مهران البجليّ الكوفيّ؛ يكنّى: أبا القاسم، ثقة، عين، روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن موسىٰ عليه السّلام. رجال النّجاشيّ: ٣٠٢، رجال الطّوسيّ: ٢٦٤، رجال الكشّيّ: ٣٦١، رجال العلاّمة: ١٣١.

(٧) ليست في المصدر.

ما يُستخف به ؟!)(١).

وعن أبي الحسن الرّضا عليه السّلام : (إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام كان يقول : طُوبى لمن أخلص لله العبادة والدّعاء ، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أُذناه ، ولم يحزن صدره بما أُعطي غيره)(٢).

وروى سفيان بن عيينة(٣) ، عن أبي عبد الله عليه السّلام في قوله(٤) عزّ وجلّ «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»(٥) قال : (ليس يعني أكثر عملاً ، ولكن أصوبكم عملاً ، وإنّما الإصابة خشية الله تعالى ، والنّيّة الصّادقة والحسنة) ثمّ قال : (الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل ، والعمل الخالص : الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ ، والنّيّة أفضل من العمل ، ألا وإنّ النّيّة هي العمل) ثمّ تلا قوله عزّ وجلّ : «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ»(٦) يعني على نيّته(٧).

و بهذا الإسناد قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»(٨) قال : (السّليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه) وقال : (وكلّ قلب

---

(١) الكافي ٣ : ٢٦٩ حديث ٩، التّهذيب ٢ : ٢٤٠ حديث ٩٤٩، الوسائل ٣ : ١٥ الباب ٦ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، الحديث ٢.

(٢) الكافي ٢ : ١٦ حديث ٣، الوسائل ١ : ٤٣ الباب ٨ من أبواب مقدّمة العبادات، حديث ٣.

(٣) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلاليّ ، كان جدّه أبوعمران عاملاً من عمّال خالد القسريّ، له نسخة عن جعفر بن محمّد عليه السّلام. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله من أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام ؛ قائلاً : سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلاليّ مولاهم أبومحمّد الكوفيّ ، أقام بمكّة. رجال النّجاشيّ : ١٩٠، رجال الطّوسيّ : ٢١٢.

(٤) «ح» : قول الله.

(٥) هود : ٧، الملك : ٢.

(٦) الإسراء : ٨٤.

(٧) الكافي ٢ : ١٦ حديث ٤.

(٨) الشّعراء : ٨٨.

فيه شكّ أو شرك فهو ساقط ، وإنّما أراد بالزّهد في الدّنيا ، لتفزع قلوبهم للآخرة)[١] .

وعن أبان بن تغلب[٢] قال : كنت صلّيت خلف أبي عبد الله عليه السّلام بالمزدلفة ، فلمّا انصرف التفت إليّ ، فقال : (يا أبان ، الصّلوات الخمس المفروضات من أقام حدودهنّ وحافظ على مواقيتهنّ أتى[٣] الله يوم القيامة وله عنده عهد يدخله به الجنّة ، ومن لم يقم حدودهنّ ولم يحافظ على مواقيتهنّ لقى الله ولا عهد له ؛ إن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له)[٤] .

والأخبار في ذلك كثيرة ، فلنقتصر على هذا القدر.

واعلم أنّه قد استفيد منها أنّ قبول الصّلاة موقوف على الإقبال بالقلب بها ، والالتفات عمّا سوى الله فيها ، وأنّ قبولها يوجب قبول ما سواها من الأعمال ، وحينئذٍ فالاهتمام بهذه الصّفة أمر مهمّ ، والغفلة عنها خسارة عظيمة ، وانحطاط قويّ ، وغفلة رديّة ، حيث يدأب نفسه في الطّاعة ، ويقوم بها آناء اللّيل وأطراف النّهار ، ثمّ لا يجد له بذلك ثمرة ، ولا يستفيد به فائدة : «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

---

(١) الكافي ٢ : ١٦ حديث ٥.

(٢) هو: أبان بن تغلب بن رباح ؛ أبوسعيد البكريّ الجُرَيْريّ، مولى بني جرير بن عبادة... عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله عليهم السّلام، روى عنهم، وكانت له عندهم منزلة وقَدَم... وقال له أبوجعفر [الباقر] عليه السّلام : (اجلس في مسجد المدينة وأفْتِ الناس ؛ فإنّي أُحبّ أن يُرىٰ في شيعتي مثلك) وقال أبوعبدالله [الصادق] عليه السّلام لمّا أتاه نعيُه : (أما والله لقد أوجع قلبيَ موتُ أبان)، وكان قارئاً من وجوه القرّاء، فقيهاً، لغويّاً، سمع من العرب وحكىٰ عنهم. عدّه الشّيخ الطّوسيّ تارة من أصحاب الإمام الباقر عليه السّلام، وأُخرىٰ من أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام. رجال النّجاشيّ : ١٠، رجال الطّوسيّ : ١٠٦، ١٥١.

(٣) في المصادر: لقي.

(٤) الكافي ٣ : ٢٦٧ حديث ١، التّهذيب ٢ : ٢٣٩ حديث ٩٤٥، الوسائل ٣ : ٧٨ الباب ١ من أبواب المواقيت، الحديث ١.

صُنْعاً»[١] خصوصاً إذا انضمّ إلى ذلك ما روي: (إنّ الصّلاة إذا رُدّت رُدّ سائر عمله، كما أنّها إذا قُبلت قُبل سائر عمله)[٢]. فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا من فضله العميم بدوام الإقبال، وقبول الأعمال.

---

(١) الكهف: ١٠٣.

(٢) الفقيه ١: ٢٠٨ حديث ٦٢٦، الوسائل ٣: ٢٢ الباب ١٨ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ١٠.

المطلب الثّالث

في بيان الدّواء النّافع في حضور القلب.

اعلم أنّ المؤمن لا بدّ أن يكون معظّماً لله تعالى، وخائفاً له، وراجياً، ومستحيياً[1] من تقصيره، فلا ينفكّ عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قوّتها عنده بقدر قوّة يقينه، فانفكاكه عنها في الصّلاة لا سبب له إلّا تفرّق الفكر، وتقسّم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصّلاة، ولا يلهي عن الصّلاة إلّا الخواطر الواردة الشّاغلة.

فالدّواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر، ولا يدفع الشّيء إلّا بدفع سببه، وسبب توارد الخواطر: إمّا أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً في ذاته باطناً.

أمّا الخارج؛ فما يقرع السّمع أو يظهر للبصر، فإنّ ذلك قد يخطف الهمّ حتّى يتبعه، ويتصرّف فيه، ثمّ ينجرّ منه[2] الفكر إلى غيره، ويتسلسل ويكون الإبصار سبباً للافتكار[3]، ثمّ يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض الآخر، ومن قويت رتبته، وعلت همّته، لم يلهه ما يجري على حواسّه، ولكنّ الضّعيف لابدّ وأن يتفرّق به فكره.

---

(١) «م»: مستحياً.

(٢) «ح»: من.

(٣) «ح» «م»: للأفكار.

فعلاجه : قطع هذه الأسباب ؛ بأن يغضّ بصره ، أو يصلّي في بيت مظلم ، أو لا[١] يترك بين يديه ما يشغل حسّه ، أو[٢] يقرب من حائط عند صلاته حتّى لا تتّسع مسافة بصره ، ويحترز من الصّلاة على الشّوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة ، وعلى الفرش[٣] المزيّنة ، ولذلك كان المتعبّدون يتعبّدون في بيت صغير مظلم ، سعته بقدر ما يمكن الصّلاة فيه ، ليكون ذلك أجمع للهمّ[٤] .

و ينبغي أن لايعدل إلى غمض[٥] العينين ما وجد السّبيل إلى القيام بوظيفة النّظر، وهي جعله قائماً إلى موضع سجوده وغيره من الأمور المعلومة شرعاً ، فإن تعذّر القيام بها مع فتحهما ، فالغمض أولى ، لأنّ الفائت من وظيفة الصّلاة وصفتها بتقسّم الخاطر أعظم منه مع الإخلال بوظيفة النّظر[٦] .

وليحظر بباله عند نظره إلى موضع سجوده أنّه واقف بين يدَي ملك عظيم يراه ويطّلع على سريرته و باطن قلبه ، وإن كان هو لايراه ، وأنّ التّوجّه إليه لا يكون إلّا بوجه القلب ، ووجه الرّأس مثال ومضاف بالتّبع ، وأنّه يخاف إن ولّاه ظهر قلبه أن يطرده عن باب كرمه ، ويسلبه[٧] مقام خدمته ، ويبعده عن جناب قُدسه ، ومقدّس حضرته .

---

(١) «ب» : وألاّ.

(٢) «ب» «د» «م» : و.

(٣) «د» : الفراش.

(٤) «ح» «د» : لهم.

(٥) «ب» «ح» «م» : غضّ.

(٦) قال المحدّث الفيض الكاشاني تعليقاً على هذا:

ويمكن أن يقال : إنّ الغضّ الّذي هو من خشوع الجوارح المأمور به يغني عن الغمض ؛ فلا حاجة إلى ترك السّنّة من وظيفة النّظر، اللّهمّ إلاّ أن يشتغل بالتّأمّل في موضع سجوده وما بين قدميه ونحوهما ؛ فحينئذٍ لا يبعد ما قاله رحمه الله. المحجّة البيضاء ١ : ٣٧٤.

(٧) «م» زيادة: عن.

وكيف يليق بالعبد أن يقف بين يدَي سيّده ويوله ظهره ويجعل فكره في غير ما يطلبه منه؟! لا[١] ريب في أنّ هذا العبد مستحقّ للخذلان، مستوجب للحرمان، في الشّاهد الخسيس، والقياس البعيد، فكيف في المقصد الأصليّ، والملك الحقيقيّ؟!

وقد ورد في الحديث: (إنّ الله لاينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٢] فبهذا ونظائره تجتمع[٣] الهمّة، ويصفو القلب، وينحصر بالنّظر إلى الأمور الخارجيّة.

وأمّا الأسباب الباطنة؛ فإنّها أشدّ، فإنّ من تشعّبت به الأُمور في أودية الدّنيا لم ينحصر[٤] فكره في فنٍّ واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب، وغضّ البصر لا يعينه[٥]، فإنّ ما وقع في القلب كافٍ في الشّغل.

فهذا، طريقه: أن يردّ النّفس قهراً إلى فهم ما يقرأه[٦] في الصّلاة، ويشغلها به عن غيره. ويعينه على ذلك أن يستعدّ قبل التّحريم؛ بأن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام[٧] بين يدَي الله تعالى وهول المطّلع، ويفرغ قلبه قبل التّحريم بالصّلاة عمّا يهمّه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

فهذا طريق تسكين الأفكار، فإن كان لايسكن هائج أفكاره بهذا الدّواء المسكّن، فلا ينجيه إلّا المسهّل الّذي يقمع مادّة الدّاء من أعماق العروق، وهو أن

---

(١) «ب»: ولا.

(٢) فيض القدير ٢: ٢٧٧ حديث ١٨٣٢.

(٣) «م»: تُجمع.

(٤) «د» «ح» «ب»: يحضر.

(٥) في بعض النّسخ: يغنيه.

(٦) «م»: يقرأ.

(٧) «ح» «د»: القيام.

ينظر في الأُمور الشّاغلة الصّارفة له عن إحضار(١) القلب ، ولا شكّ أنّها تعود إلى مهمّاته ، وأنّها إنّما صارت مهمّاً بشهواته ، فيعاقب نفسه بالنّزوع عن تلك الشّهوات ، وقطع تلك العلائق ، فكلّ ما يشغله عن صلاته ، فهو ضدّ دينه ، وجند إبليس عدوّه ، فإمساكه أضرّ عليه من إخراجه ، فيتخلّص(٢) عنه بإخراجه .

وقد روي أنّ بعضهم صلّى في حائطٍ(٣) له فيه شجر ، فأعجبه ريش طائر في الشّجر يلتمس مخرجاً ، فأتبعه نظره ساعة لم يذكر(٤) كم صلّى ، فجعل حائطه صدقة ، ندماً ورجاءً للعوض عمّا فاته(٥)

وهكذا كانوا يفعلون قطعاً(٦) لمادّة الفكر ، وكفّارة لما جرى من نقصان الصّلاة .

وكان بعضهم إذا فاتته صلاة في جماعة ، أحيى تلك اللّيلة .

وآخَرٌ أخَّرَ صلاة المغرب حتّى طلع كوكبان ، فأعتق رقبتين .

وفات الآخر ركعتا الفجر ، فأعتق رقبة . كلّ ذلك مجاهدة للنّفس ، ومناقشة لها في الغفلة عمّا فيه حظّها .

فهذا هو الدّواء القامع لمادّة العلّة ، ولا يغني غيره ، فإنّ ما ذكرناه من التّلطّف بالتّسكين والرّدّ إلى فهم الذّكر ينفع في الشّهوات الضّعيفة ، والهمم الّتي لا تشغل إلّا حواشي القلب .

فأمّا الشّهوة القويّة الرهفة(٧) ، فلا ينفع منها التّسكين ، بل لا تزال تجاذبها

---

(١) «د» : إحضاره.

(٢) «ب» فيخلص، «م» : فليتخلّص.

(٣) الحائط : البُستان من النّخيل إذا كان عَليه حائطاً. مجمع البحرين ١ : ٥٩٨ مادة (حوط).

(٤) «م» : يَذْر.

(٥) إحياء علوم الدّين ١ : ٢٩٥، المحجّة البيضاء ١ : ٣٧٦.

(٦) «م» : دفعاً.

(٧) «ح» «د» «م» : المرهقة.

وتجاذبك، ثمّ تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة.

ومثاله: رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوّش عليه، فلم يزل يطيّرها بخشبة هي في يده و يعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى التّنفير بالخشبة، فقيل له: إن أردت الخلاص، فاقلع الشّجرة(١).

فكذلك شجرة الشّهوة، إذا استَعْلَت(٢) وتفرّقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وانجذاب الذّباب إلى الأقذار، والشّغل يطول في دفعها، فإنّ الذّباب كلّما ذُبَّ آبَ، ولأجله سمّي ذباباً، فكذا الخواطر، فهذه الشّهوات كثيرة، وقلّما يخلو العبد عنها، ويجمعها أصل واحد، وهو «حبّ الدّنيا» وذلك «رأس كلّ خطيئة»(٣)، وأساس كلّ نقصان، ومنبع كلّ فساد.

ومن انطوى باطنه على حبّ الدّنيا حتّى مال إلى شيء منها لا ليتزوّد منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعنّ في أن تصفو له لذّة المناجاة في الصّلاة؛ فإنّ من فرح بالدّنيا، فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمّة الرّجل مع قرّة عينه، فإن كانت قرّة عينه في الدّنيا انصرف لا محالة إليها همّه.

ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة، وردّ القلب إلى الصّلاة، وتقليل الأسباب الشّاغلة.

وأمّا من كانت الدّنيا معه وليس هو معها، وإنّما يصرفها حيث أمره الله تعالى، ويستعين بها على طاعة الله، ويتزوّد منها إلى الآخرة وهمّته مجتمعة فيما يبقى، ويجعلها من أسباب الكمال ومقدّماته، فلا بأس عليه، فقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (نعمَ العون على تقوى الله الغِنىٰ)(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين ١: ٢٩٥، المحجّة البيضاء ١: ٣٧٦.

(٢) «م» «ح»: استقلّت، «د»: اشتعلت.

(٣) الخصال ١: ٢٥ حديث ٨٧.

(٤) الفقيه ٣: ١٥٦ حديث ٣٥٧٠، الكافي ٥: ٧١ حديث ١، الوسائل ١٢: ١٦ الباب ٦، وص ٤٩ الباب ٢٨ من أبواب مقدّمات التّجارة، الحديث ٣.

إلاّ انّ ذلك محلّ الغرور، وموضع تلبيس إبليس عليه لعنة الله ، فليحذر المستيقظ عند ذلك ، ولا يزال يراجع عقله ويمتحن قلبه حذراً من أن يدخل عليه الخطر والكدر وهو لا يشعر . ولا برهان على ذلك أقوى من الوجدان .

فهذا هو الدّواء ، ولمرارته استبشعه أكثر الطّباع ، وبقيت العلّة مزمنة ، وصار الدّاء عضالاً ؛ حتّى أنّ الأكابر اجتهدوا أن يصلّوا ركعتين لا يحدّثوا فيهما أنفسهم بأُمور الدّنيا ، فعجزوا عن ذلك[1] .

فإذن لا مطمع فيها لأمثالنا ، وليت يسلَم[2] من الصّلاة شطرها أو ثلثها عن الوسواس ، فنكون ممّن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً .

وعلى الجملة : فهمّة الدّنيا وهمّة الآخرة في القلب مثل الماء الّذي يصبّ في قدح مملوّ بالخلّ ، فبقدر ما يدخل من الماء يخرج من الخلّ ، لا محالة ، ولا يجتمعان ، فتدبّر هذه الجملة وفّقك الله وإيّانا [إلى الرّشاد][3] وأوقفنا على مناهج السّداد ، فهذا ما يتعلّق به الغرض من المقدّمة .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ٢٩٦، المحجّة البيضاء ١ : ٣٧٧.

(٢) «ب» : سلم .

(٣) «ب» : للرّشاد .

الفصل الأول

في المقدمات

الفصل الأوّل : في المقدّمات .

وهي واجبة ومندوبة .

فالواجبة : الطّهارة ، وإزالة النّجاسة ، وستر العورة ، والمكان الّذي يصلّى فيه ، والوقت ، والقبلة .

والمندوبة كثيرة ؛ كالمسجد ، والأذان ، والإقامة ، والتّوجّه بستّ تكبيرات .

ولكلّ واحدة من هذه المقدّمات وظائف قلبيّة ، وأسرار خفيّة ، يطّلع[1] عليها بصفاء العقل وحضور القلب ، وما نذكره من الوظائف كالمدرج إلى الزّيادة ، والمرقاة إلى غيره من دقائق العبادة[2] .

فأمّا الطّهارة ؛ فليستحضر في قلبه أنّ تكليفه فيها بغسل الأطراف الظّاهرة وتنظيفها لاطّلاع النّاس عليها ، ولكون تلك الأعضاء مباشرة للأُمور الدّنيويّة ، منهمكة في الكدورات الدّنيّة ، فَلأن يطهر مع ذلك قلبه الّذي هو موضع نظر الحقّ تعالى ، فإنّه لا ينظر إلى صوركم[3] ، ولكن ينظر إلى قلوبكم .

ولأنّه الرّئيس الأعظم لهذه الجوارح ، والمستخدم لها في تلك الأُمور المبعّدة عن جنابه تعالى وتقدّس أُولى وأُخرى ، بل هذا تنبيه واضح على ذلك ، وبيان شاف على ما هنالك .

---

(١) «ب» «م» : يتطلّع.

(٢) «د» : العبادات.

(٣) «ب» : صورتكم.

وليعلم من تطهير تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى والإقبال عليه ، والالتفات عن الدّنيا بالقلب والحواس لتلقّي السّعادة في الأخرى : أنّ الدّنيا والآخرة ضَـرّتـان ؛ كلّما قربت من إحداهما بعدت عن الأخرى ، فلذلك أمر[١] بالتّطهير من الدّنيا عند الاشتغال والإقبال على الأُخرى .

فأمر في الوضوء بغسل الوجه ، لأنّ التّوجّه والإقبال بوجه القلب على الله تعالى به وفيه أكثر الحواس الظّاهرة الّتي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدّنيا ، فأمر بغسله ليتوجّه به ، وهو خالٍ من تلك الأدناس ، ويترقّى بذلك إلى تطهير ما هو الرّكن الأعظم في القياس[٢] .

ثمّ أمر بغسل اليدين ، لمباشرتهما أكثر أحوال الدّنيا الدّنيّة والمشتهيات الطبيعيّة .

ثمّ بمسح الرّأس ، لأنّ فيه القوّة المفكّرة[٣] الّتي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطّبيعيّة ، وتنبعث الحواس حينئذ إلى الإقبال على الأُمور الدّنيويّة ، المانع من الإقبال على الآخرة السّنيّة .

ثمّ بمسح الرّجلين ، لأنّ بهما يتوصّل إلى مطالبه ، ويتوصّل[٤] إلى تحصيل مآربه ــ على نحو ما ذكر في باقي الأعضاء ــ وحينئذ فيسوغ له الدّخول في العبادة ، والإقبال عليها فائزاً بالسّعادة .

وأمر في الغُسل بغسل جميع البشرة ، لأنّ أدنى حالات الإنسان وأشدّها تعلّقاً وتملّكاً بالملكات الشّهويّة حالة الجُماع ، وموجبات الغسل ، والجميع بدنه مدخل في تلك الحالة ، ولهذا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : (إنّ تحت كلّ شعرة جنابة)[٥]

---

(١) «د» : أمرت.

(٢) «ب» : النّاس.

(٣) «م» : المتفكّرة.

(٤) «ب» : يتوسّل.

(٥) سنن أبي داود ١ : ٦٥ حديث ٢٤٨.

فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العليّة، منغمساً في اللّذّات الدّنيّة، كان غسله أجمع من أهمّ المطالب الشّرعيّة، ليتأهّل لمقابلة الجهة الشّريفة، والدّخول في العبادة المنيفة، ويبعد عن القوى الحيوانيّة، واللّذّات الدّنياويّة.

ولمّا كان للقلب من ذلك الحظّ الأوفر، والنّصيب الأكمل، كان الاشتغال بتطهيره من الرّذائل والتّوجّهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظّاهرة عند اللّبيب العاقل.

وأمر في التّيمّم بمسح تلك الأعضاء بالتّراب عند تعذّر غسلها بالماء الطّهور، وضعاً لتلك الأعضاء الرّئيسة، وهضماً لها بتلقّيها بأثر التّربة الخسيسة.

وهكذا يخطر أنّ القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرّذيلة، وتحليته[1] بالأوصاف الجميلة، فليقمه في مقام الهضم والإزراء، ويَسقْهُ بسياط الذّلّ والإغضاء، عسى أن يطّلع عليه مولاه الرّحيم وسيّده الكريم وهو منكسر متواضع؛ فيهبه نفحة من نفحات نوره اللاّمع، فإنّه عند القلوب المنكسرة ـ كما ورد في الأثر[2] ـ فترقّ من هذه الإشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال، وتلافي سالف الإهمال.

ومن الأسرار الواردة في الأثر من نظائر ذلك: قول الصّادق عليه السّلام: (إذا أردتَ الطّهارة والوضوء فتقدّم إلى الماء تقدّمك إلى رحمة الله، فإنّ الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلاً إلى بساط خدمته، وكما أنّ رحمته تطهّر ذنوب العباد، كذلك النّجاسات الظّاهرة يطهّرها الماء لا غير[3]، قال الله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»[4] «وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً

---

(١) «ب»: تجليته.

(٢) انظر: الوسائل ٤: ١١٢٠ ـ ١١٢٤ الباب ٢٨، ٢٩ من أبواب الدّعاء؛ فإنّ فيه ما يدلّ على ذلك.

(٣) «ب» «م»: غيره.

(٤) الأعراف: ٥٧.

طَهُوراً»[١] وقال عزّ وجلّ: «وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ»[٢] فكما أحيى به كلّ شيء من نعيم الدّنيا، كذلك بفضله ورحمته جعل حياة القلوب بالطّاعة وتفكّر في صفاء الماء ورقّته، وطهوره و بركته، ولطيف امتزاجه بكلّ شيء، وفي كلّ شيء، واستعمله في تطهير الأعضاء الّتي أمرك الله بتطهيرها، وات بأدائها[٣] فرائضه وسننه؛ فإنّ تحت كلّ واحدة منها فوائد كثيرة إذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عين فوائده عن قريب، ثمّ عاشر خلقَ الله تعالى كامتزاج الماء بالأشياء يؤدّي كلّ شيء حقّه ولا يتغيّر عن معناه، معتبراً لقول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «مثَلُ المؤمن الخاص كمثَل الماء» ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السّماء [وسمّاه طهوراً][٤]؛ وطهّر قلبك بالتّقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء)[٥].

وفي علل ابن شاذان[٦] عن الرّضا عليه السّلام: (إنّما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدَي الجبّار، عند مناجاته إيّاه مطيعاً له فيما أمره، نقيّاً من

---

(١) الفرقان: ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) «د» «م»: بآدابها.

(٤) ليست في المصدر.

(٥) مصباح الشّريعة: ٧٥، المحجّة البيضاء ١: ٣٠٧، المستدرك ١: ٣٥٣ــ٣٥٤ باب نوادر ما يتعلّق بأبواب الوضوء.

(٦) هو: الفضل بن شاذان بن الخليل: أبو محمّد الأزديّ النّيسابوريّ، روى عن أبي جعفر الثّاني عليه السّلام، وقيل: عن الرّضا عليه السّلام أيضاً، وكان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء والمتكلّمين، وله جلالة في هذه الطّائفة، وذكر الكنجيّ أنّه صنّف مائة وثمانين كتاباً؛ لم يقع منها إلينا إلاّ بعضُها. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله تارة من أصحاب الإمام الهادي عليه السّلام بعنوان النّيشابوريّ، وأُخرى من أصحاب الإمام العسكريّ عليه السّلام، بعنوان: النّيسابوريّ، كما ذكره في الفهرست؛ بعنوان النّيسابوريّ، وقال عنه: فقيه متكلّم، جليل القدر. رجال النّجاشيّ: ٣٠٧، رجال الطّوسيّ: ٤٢٠، ٤٣٤، الفهرست: ١٢٤.

الأدناس والنّجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النّعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدَي اجبّار.

وإنّما وجب على الوجه واليدين والرّأس والرّجلين، لأنّ العبد إذا قام بين يدَي الجبّار فإنّما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء وذلك انّه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل و يرغب و يرهب ويتبتّل، و برأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد.

وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء، لأنّ الجنابة من نَفَس الإنسان وهو شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء[1] ليس هو من نفَس الإنسان إنّما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب)[2].

وأمّا إزالة النّجاسة؛ فالكلام فيها نحو الكلام في الطّهارة في التّزكية[3] بتطهير القلب من نجاسة الأخلاق ومَساويها.

فإنّك إذا أُمرت بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر، وبتطهير الثّياب وهي أبعد عن ذاتك، فلا تغفل عن تطهير لبّك الّذي هو ذاتك وهو قلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتّوبة والنّدم على ما فرّط، وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل، وطهّر بها باطنك، فإنّها موقع نظر المعبود.

وتذكّر بتخلّيك لقضاء الحاجة نقصك وحاجتك، وما تشتمل عليه من الأقذار، وما في باطنك وأنت تزيّن ظاهرك للنّاس، وأنّ الله تعالى مطّلع على خُبْثِ باطنك وخسّة حالك، فاشتغل بإخراج نجاسات الباطن والأخلاق الدّاخلة في الأعماق المفسدة لك على الإطلاق لتستريح نفسك عند إخراجها، ويسكن قلبك من

---

(١) في المصدر: والتّخلّي.

(٢) عيون أخبار الرّضا ٢: ١٠٣.

(٣) «ب»: التّذكير، «م»: التّذكّر.

دنسها، ويخف لبّك من ثقلها، وتصلح للوقوف على بساط الخدمة، والتّأهّل[١] للمناجاة.

ولا تستر[٢] ما ظهر منك، فلابدّ أن يظهر عليك ما بطن، لأنّ الطّبيعة تظهر ما يكنّ[٣] فيها، وتفتضح حينئذ بما سترته عن النّاس كما يفعله الله بكلّ مدلّس[٤]، قال الصّادق عليه السّلام: (سمّي المستراح مستراحاً، لاستراحة النّفوس من أثقال النّجاسات، واستفراغ الكثيفات والقذر فيها، والمؤمن يعتبر عندها أنّ الخالص من حُطام الدّنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويُفرِّغُ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النّجاسة والغائط والقذر، ويتفكّر في نفسه المكرمة في حال، كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أنّ التّمسّك بالقناعة والتّقوى يورث له راحة الدّارين، وأنّ الرّاحة في هوان الدّنيا، والفراغ من التّمتّع بها، وفي إزالة النّجاسة من الحرام والشّبهه، فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إيّاها، ويفرّ من الذّنوب، ويفتح باب التّواضع والنّدم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره، واجتناب نواهيه، طلباً لحسن المآب، وطيب الزّلف، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصّبر والكفّ عن الشّهوات إلى أن يتّصل بأمان الله في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فإنّ المعوّل ذلك[٥]، وما عداه لاشيء[٦].

---

(١) «ب»: تتأهّل.

(٢) «ح» «ب»: تستتر، وفي بعض النّسخ الأُخرى: تسرّ.

(٣) «ب»: كمن، «د»: تكنّ.

(٤) التّدْليس: كِتمانُ عيب السّلعة عن المشتري؛ يقال: دَلَّسَ البائِعُ تَدْليساً: كتم عيب السّلعة، والدُّلْسَةُ: الخَديعة. مجمع البحرين ١: ٤٩ مادّة (دلس).

(٥) في المصدر: على ذلك.

(٦) مصباح الشّريعة: ٧١، المحجّة البيضاء ١: ٢٩٣، المستدرك ١: ٢٦٦ـ٢٦٧ باب أنّه يستحبّ لمن دخل الخلاء تذكّر ما يوجب الاعتبار.

وأمّا ستر العورة ؛ فاعلم أنّ معناه : تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ، فإنّ ظاهر بدنك موقع نظر الخلق ، فما رأيك في عورات باطنك ومقابح سرّك الّتي لا يطّلع عليها إلّا ربّك ؟ .

فاحضر(١) تلك المقابح ببالك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقّق أنّه لا يستر(٢) عن عين الله تعالى ساتر ، وإنّما يسترها ويكفّرها النّدم والحياء والخوف ، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانها(٣) ، فتذلّ به نفسك ، ويستكين(٤) تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبِق(٥) الّذي ندم فرجع إلى مولاه بانكسار رأسه من الحياء والخوف .

قال الصّادق عليه السّلام : (أزين اللّباس للمؤمنين لباس التّقوى ، وأنعمه الإيمان ، قال الله عزّ وجلّ : «وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ»(٦) ، وأمّا اللّباس(٧) الظّاهر ، فنعمة من الله تعالى يستر بها عورات بني آدم وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرّيّة آدم عليه السّلام ما لم يكرم غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم ، وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ ، بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ، ولا يحملك فيها إلى العجب ، والرّياء ، والتّزيّن ، والمفاخرة ، والخُيَلاء ، فإنّها من آفات الدّين ، ومورثة القسوة في القلب ، فإذا لبست ثوبك ، فاذكر ستر الله تعالى عليك ذنوبك برحمته ، وألْبِسْ باطنك بالصّدق كما ألبست ظاهرك بثوبك ،

---

(١) «م» «ب» : فاخطر.

(٢) «ب» : يستتر.

(٣) «م» : مكانها.

(٤) «ح» : تُسكّن.

(٥) يقال : أبَقَ العبدُ إباقاً : إذا هرب من سيّده من غير خوفٍ ولا كدّ عمل. مجمع البحرين ١ : ٢٥ مادّة (أبق).

(٦) الأعراف : ٢٦.

(٧) في المصباح : لباس.

ولـيكن باطنك في ستر الرّهبة ، وظاهرك في ستر الطّاعة ، واعتبر بفضل الله عزّ وجلّ ؛ حيـث خـلق أسباب اللّباس لتستر[١] العورات الظّاهرة ، وفتح أبواب التّوبة والإنابة لـتستر[٢] بها عورات الباطن[٣] من الذّنوب وأخلاق السّوء ، ولا تفضح أحداً حيث سَـتَـرَ الله عـليـك أعـظم منه ، واشتغل بعيب نفسك ، واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره ، واحذر أن يفنى[٤] عمرك لعمل غيرك ، ويتّجر برأس مالك غيرُك وتهلك نفسك ؛ فـإنّ نـسيان الذّنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل ، وأوفر أسباب العقوبة في الآجـل ، وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله تعالى ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في ديـن الله ، فـهـو بمعزل عن الآفات ، خائض[٥][٦] في بحر رحمة الله عزّ وجلّ ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان ، وما دام ناسياً لذنوبه ، جاهلاً لعيوبه ، راجعاً إلى حوله وقوّته ، لا يفلح إذن أبداً)[٧] .

وأمّا المـكان ؛ فاستحضر فيه أنّك كائن بين يدَي ملك الملوك ، تريد مناجاته والـتّضرّع إليه ، والتماس رضاه ، ونظره إليك بعين الرّحمة ، فانظر مكاناً يصلح لذلك ؛ كـالمساجد الشّريفة ، والمشاهد المطهّرة مع الإمكان ، فإنّه[٨] تعالى جعل تلك المواضع محـلاً لإجـابـتـه ، ومـظـنّـة [لقبوله ورحمته][٩] ، ومعدناً لمرضاته ومغفرته ، على مثال حـضـرة الملوك الّـذين يجعلونها وسيلة لذلك ، فادخلها ملازماً للسّكينة والوقار ، مراقباً

---

(١) «د» «م» «ب» : لستر.

(٢) «د» «ب» «م» : ليستر.

(٣) «د» : العورات الباطنة.

(٤) «ح» «ب» «م» : تفني.

(٥) في المصادر: غائص.

(٦) يقال : خُضْتُ الماء أخوضُهُ خَوْضَاً وخِياضاً : مشيتُ فيه. مجمع البحرين ١ : ٧١٢ مـادّة (خوض).

(٧) مصباح الشّريعة : ٦٠، المحجّة البيضاء ١ : ٣٧٩.

(٨) «ب» : فإنّ الله.

(٩) «ب» : لقبول رحمته.

للخشوع والانكسار، سائلاً أن يجعلك من خاصّ عباده، وأن يلحقك بالماضين منهم.

وراقب الله كأنّك على الصّراط جائز، وكن متردّداً بين الخوف والرّجاء، وبين القبول والطّرد، فيخشع حينئذ قلبك، ويخضع لُبّك، وتتأهّل لأن تَفيض عليك الرّحمة، وتنالك يد العاطفة، وترعاك عين العناية، قال الصّادق عليه السّلام: (إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنّك قصدتَ ملكاً عظيماً لا يطأ بساطه إلّا المطهّرون، ولا يؤذن لمجالسته إلّا الصّدّيقون، وهب القدوم إلى بساط خدمته هيبة الملك، فإنّك على خطر عظيم إن غفلت، واعلم أنّه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك، فإن عطف عليك بفضله[١] ورحمته قَبِل منك يسير الطّاعة، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً، وإن طالبك باستحقاقه الصّدق والإخلاص عدلاً بك حجبك وردّ طاعتك وإن كثرت، وهو فعّال لما يريد، واعترف بعجزك[٢] وتقصيرك وفقرك بين يديه، فإنّك قد توجّهت للعبادة له والمؤانسة به [وأعرض أسرارك عليه، وليعلم أنّه لا يخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم، وكن كأفقر عباده بين يديه][٣]، وأخل قلبك عن كلّ شاغل يحجبك عن ربّك، فإنّه لا يقبل إلّا الأطهر [و][٤] الأخلص [وانظر من أيّ ديوان يخرج اسمك][٥]، فإن ذقت من حلاوة مناجاته، ولذيذ مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله وإجاباته، فقد صلحت لخدمته، فادخل فلك الإذن والأمان، وإلّا فقف وقوف مضطرّ قد انقطع عنه الحِيَلُ، وقَصُرَ عنه الأملُ، وقُضِيَ الأجلُ، فإذا علم الله من قلبك صدق الالتجاء إليه، نظر إليك بعين الرّأفة والرّحمة [والعطف][٦] ووفّقك لما يحبّ و يرضى، فإنّه كريم، يحبّ

---

(١) «ح» «د»: فبفضله.

(٢) في المصباح، زيادة: وقصورك.

(٣) أضفناه من المصادر.

(٤) أضفناه من المصادر.

(٥) أضفناه من المصادر.

(٦) أضفناه من المصادر والبحار.

الكرامة لعباده المضطرّين إليه [المحدقين على بابه ، لطلب مرضاتِه][1] ، قال الله تعالى: «**أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**»[2][3]

وأمّا الوقت ؛ فاستحضر عند دخوله أنّه ميقات جعله الله تعالى لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأهّل للمثول في حضرته ، والفوز بطاعته .

وليظهر على قلبك السّرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سبباً لقربك ، ووسيلة إلى فوزك ، فاستعِدَّ لَهُ بالطّهارة ، والنّظافة ، ولبس الثّياب الصّالحة للمناجاة ، كما تتأهّب عند القدوم على ملك من ملوك الدّنيا ، وتلقاه بالوقار والسّكينة ، والخوف والرّجاء ، فإنّ الرّحمة عميمة ، والفضل قديم ، والأخذ والاستدراج متحقّق ، والطّرد عند التّقصير متوجّه ، فكن بين ذلك قواماً .

والزم الخشوع والخضوع ، والذّلّ والانكسار ، فإنّه عند الموصوف بذلك ، ومثّل[4] في نفسك لو أنّ ملكاً من ملوك الأرض[5] وعدك بأن يكتبك في وقت معيّن من خواصّه والقائمين بين يديه ببعض خدمته ، ويخاطبك وتخاطبه على طريق الانبساط والأُنس في مخاطباتك ، وتطلب إليه[6] ما تحتاج إليه من مهمّاتك ، ويجعلك عنده من مقرّبي العباد ، ويخلع عليك خلعة سنيّة بين الأشهاد ، ويجعل ذلك إلى مدّة طويلة ، وغاية بعيدة ، مع أنّه لايؤثّر ذلك في حظّك عند الله تعالى ، بل يزيده ، أمَا كُنتَ تنتظر ذلك الوقت قبل إبّانه[7] ، وتهتمّ له قبل أوانه ، وتفرح بقربه فضلاً عن دخوله ، ويزيد بهجتك وسرورك عند وصوله ؟

---

(١) أضفناه من المصادر.

(٢) النّمل : ٦٢.

(٣) مصباح الشّريعة : ٨٦، المحجّة البيضاء ١ : ٣٨٠.

(٤) «ب»: فمثّل.

(٥) «م» : الدّنيا.

(٦) «م» : منه.

(٧) «م» : إتيانه، «د» : إيابه.

فلا تجعل عناية الله جلّ جلاله بك ، وإعدادك لمخاطبتك له ومخاطبته لك ، وكتبته إيّاك في ديوان المقرّبين بالصّلاة الّتي هي أفضل الأعمال ، وبسجودها أوجب القرب إلى حضرته ، والفوز بمحبّته ، كما ورد في كتابه الحكيم ، ووعد به رسوله الكريم ، وخلعته(١) الدّائمة في الدّار الصّافية ، دون تقريب ملك من ملوك الدّنيا مع عجزه عن نفعك بدون توفيق الله تعالى لك ، وعدم الوثوق الحقيقيّ بوفائه ودوامه مدّة يسيرة على تقدير وقوعه .

ومن هنا كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله ينتظر وقت الصّلاة ، ويشتدّ شوقه ، ويترقّب دخوله ، ويقول لبلال(٢) مؤذّنه : (أرِحْنا [بها](٣) يا بلال)(٤) أشار بذلك إلى أنّه في تعبٍ شديدٍ من عدم اشتغاله بهذه التّكليفات ، وقيامه بوظائف الصّلاة ، وإن كان سرّه لا يخلو من ضروب من المناجاة ، إلّا أنّ قرّة عينه في الصّلاة ؛ كما قال عليه أفضل الصّلوات والتّحيّات(٥) .

---

(١) «ب» «ح» : خلعه ، «د» : والخلعة.

(٢) هو: بلال بن رباح مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله، عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وآله، وقال : شهد بدراً، وتوفّي بدمشق في الطّاعون سنة ثماني عشرة من الهجرة، كنيته : أبوعبدالله، وقيل : أبوعمرو، ويقال : أبوعبدالكريم، وهو... مدفون بباب الصّغير بدمشق. روى الوحيد في التّعليقة، عن جدّه، أنّه قال : رأيت في بعض كتب أصحابنا، عن هاشم بن سالم، عن الصّادق عليه السّلام، وعن أبي البختريّ، قال : حدّثنا عبدالله بن احسن بن الحسن ؛ أنّ بلالاً أبىٰ أن يبايع أبابكر، وأن عمر أخذ بتلابيبه ؛ وقال له : يابلال، هذا جزاء أبي بكر منك أن أعتقك ، فلا تجيء تبايعه؟! فقال : إن كان أبوبكر أعتقني لله فليدعني لله، وإنّ كان أعتقني لغير ذلك ، فها أنا ذا، وأمّا بيعته ؛ فما كُنتُ أُبايعُ مَنْ لم يستخلفه رسول الله صلّى الله عليه وآله، والّذي استخلفه، بيعتُه في أعناقنا إلى يوم القيامة، فقال عمر: لا أباً لك ، لا تقم معنا ؛ فارتحل إلى الشّام. رجال الطّوسيّ : ٨، تنقيح المقال ١ : ١٨٢، معجم رجال الحديث ٣ : ٣٥٨.

(٣) أضفناه من المصدر.

(٤) إحياء علوم الدّين ١ : ٢٩٦، مجمع الزّوائد ١ : ١٤٥، المحجّة البيضاء ١ : ٣٧٧.

(٥) الخصال : ١٦٥ حديث ٢١٧ــ٢١٨.

ثمّ استشعر بعد هذه البهجة خشية الله تعالى في الوقوف بين يديه وأنت ملطّخ بكدوراتك النّفسيّة ، وعلائقك الدّنيويّة ، وعوائقك البدنيّة ، فإنّ استشعار الخوف شعار الكاملين ، كما أنّ الغفلة عن ذلك علامة المطرودين ، كما قد عرفته في تضاعيف الأسرار، وجملة الآثار.

واستحضر عظمة الله تعالى وجلاله ، ونقصان قدرك وكماله ، وقد روي عن بعض أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّها قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه ، فإذا حضرت الصّلاة، فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه ، شغلاً بالله عن كلّ شيء[(١)] .

وكان عليّ عليه السّلام إذا حضر وقت الصّلاة يتململ ويتزلزل ، فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول : (جاء وقت أمانة عرضها الله على السّماوات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يَحمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها)[(٢)] .

وكان عليّ بن الحسين عليهما السّلام إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه ، فيقال له: ما هذا الّذي يعتريك[(٣)] عند الوضوء؟ فيقول : (ما تدرون بين يدي من أقوم)[(٤)] وكلّ ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله تعالى ، والالتفات إليه حال العبادة ، والانقطاع عن غيره.

وإذا سمعت نداء المؤذّن ، فاحضر في قلبك هول النّداء يوم القيامة وتشمّر بظاهرك وباطنك للمسارعة والإجابة ، فإنّ المسارعين إلى هذا النّداء هم الّذين

---

(١) روته عائشة ؛ انظر: إحياء علوم الّدين ١ : ٢٦٩، ٢٩٢، عوالي اللّئالئ ١ : ٣٢٤ حديث ٦١، عدة الدّاعي : ١٣٩.

(٢) إحياء علوم الّدين ١ : ٢٧٠، عوالي اللّئالئ ١ : ٣٢٤ حديث ٦٢.

(٣) «م» «ب» : يعتادك ، «د» : يعتورك .

(٤) إحياء علوم الّدين ١ : ٢٧٠، إرشاد العباد إلى سبيل الرّشاد : ٢٢، عوالي اللّئالئ ١ : ٣٢٤ حديث ٦٣، بحار الأنوار ٤٦ : ٧٣.

ينادون باللّطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبك على هذا النّداء ، فإن وجدته مملوّاً بالفرح والاستبشار، ومستعدّاً بالرّغبة إلى الابتدار، فاعلم أنّه يأتيك النّداء بالبُشرى ، والفوز يوم القضاء.

واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله[1] ، واعتبر بذلك أنّ الله جلّ جلاله هو الأوّل ، والآخر، والظّاهر، والباطن.

ووطّن قلبك بتعظيمه وتكبيره عند سماع التّكبير، واستحقر الدّنيا وما فيها لئلاّ تكون كاذباً في تكبيرك ، وانف عن خاطرك[2] كلّ معبود سواه بسماع التّهليل ، واحضر النّبيّ صلّى الله عليه وآله وتأدّب بين يديه ، واشهد له بالرّسالة مخلصاً، وصلّ عليه وعلى آله ، وحرّك نفسك واسع بقلبك وقالبك عند الدّعاء إلى الصّلاة وما يوجب الفلاح وما هو خير الأعمال وأفضلها ، وجدّد عهدك ــ بعد ذلك ــ بتكبير الله وتعظيمه واختمه بذكره كما افتتحت به ، واجعل مبدأك منه ، وعودك إليه ، وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوّته ، فإنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

وأمّا الاستقبال ؛ فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أنّ صرف[3] القلب عن سائر الأُمور إلى أمر الله تعالى ليس مطلوباً منك ؟! هيهات ، بل لا مطلوب سواه.

وإنّما هذه الظّواهر محرّكات للبواطن ،ووسائل إليها ، ومعارج يترقّى منها إليها ، وضبط للجوارح ، وتسكين لها بالثّبات على جهة واحدة ، حتّى لا تبغي على القلب ، فإنّها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتاتها[4] إلى جهاتها استتبعت القلب ، وانقلبت به عن وجه الله ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

---

(١) «د» : به.

(٢) «ح» : خواطرك .

(٣) «ح» : انصراف.

(٤) «ب» «م» : التفاتها.

ومن هنا جاء قول النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (أما يخاف الّذي يحوّل وجهه في الصّلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار؟)(١) فإنّ ذلك نهي عن الالتفات عن الله تعالى، وملاحظة عظمته في حال الصّلاة، فإنّ الملتفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله تعالى، وغافل عن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحوّل وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلّة عقليّته للأمور العُلويّة، وعدم إكرامه(٢) بشيء من العلوم، والقرب إلى الله تعالى.

واعلم أنّه كما لا يتوجّه الوجه إلى جهة البيت إلّا بالصّرف عن غيرها، فلا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلّا بالتّفرّغ عمّا سوى الله تعالى، وقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (إذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه [ووجهه](٣) وقلبه إلى الله تعالى، انصرف كيوم ولدته أُمّه)(٤).

وقال الصّادق عليه السّلام: (إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدّنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كلّ شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرّك عظمة الله تعالى، واذكر وقوفك بين يديه يوم **«تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلاَهُمُ ٱلْحَقِّ»**(٥) وقف على قدم الخوف والرّجاء)(٦).

فإذا توجّهت بالتّكبيرات، فاستحضر عظمة الله سبحانه، وصغر نفسك، وخسّة عبادتك في جنب عظمته، وانحطاط همّتك عن القيام بوظائف خدمته، واستتمام حقائق عبادته، وتفكّر عند قولك: **«اللّهمّ أنت الملك الحق»** في عظيم ملكه،

---

(١) تقدّم الحديث في ص: ٧٧.

(٢) «م»: الكرامة.

(٣) أضفناه من المصدر.

(٤) إحياء علوم الدّين ١: ٢٩٧، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٢.

(٥) يونس: ٣٠.

(٦) مصباح الشّريعة: ٩١، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٢.

وعموم قدرته ،واستيلائه على جميع العوالم .

ثمّ ارجع على نفسك بالذلّ والانكسار ، والاعتراف بالذّنوب والاستغفار عند قولك : **«عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنّه لا يَغفرُ الذّنوبَ إلّا أنتَ»**.

واحضر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة ، ومثّل نفسك بين يديه وأنّه قريب منك يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه ويسمع نداءه(١) ، وأنّ بيده خير الدّنيا والآخرة لابيد غيره عند قولك: **«لبّيك وسعديك، والخير في يديك»**.

ونزّهه عن الأعمال السّيّئة وأفعال الشّرّ، وابدله بها محض الهداية والإرشاد عند قولك: **«والشّرّ ليس إليك، والمهديّ من هديت»**.

واعترف له بالعبوديّة ، وأنّ قوام وجودك و بدءه ومعاده منه بقولك: **«عبدك وابن عبديك، منك، وبك، ولك، وإليك»** أي: منك وجوده ، وبك قوامه ، ولك ملكه(٢) ، وإليك معاده ،وهو الّذي يبدئ الخلق ثمّ يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى .

فاحضر في ذهنك هذه الحقائق ، وترقّ منها إلى ما(٣) يفتح عليك من الأسرار والدّقائق، وتلقّ الفيض من العالم الأعلى ، فإنّ أبوابه لا تنسدّ عن أحد من القوابل ، ولا يخيب لديه أمل آمل.

اللّهم أهّلْنا لقبول طوالع أسرارك ، وكمّلنا بالوصول إلى لوامع أنوارك ، واجعلنا من الواقفين على كراسي إرادتك(٤) ، العاكفين على بساط كراماتك ، وتمّمنا من هذا النّقصان ، واهدنا إلى طريق الرّضوان ، وجُدْ علينا بلطيف الإحسان، وأعِذْنا من صفقة الخسران، وآتنا من لدنك رحمة ، وهيّيء لنا من أمرنا رشداً.

---

(١) «ب» «م»: نداه.

(٢) «ب»: مهلكُه.

(٣) «م»: لما.

(٤) «ح»: إراداتك.

الفَصْلُ ٱلثَّانِي

في المقارنات، وهي ثمان

الفصل الثّاني : في المقارنات، وهي ثمان:

الأُولى : القيام ، ووظيفته القلبيّـة : تذكّر أنّك قائم بين يدّي الله تعالى ، وهو مطلّع على سريرتك، عالم بما تخفي وما تعلن، وهو أقرب إليك من حبل الوريد، فاعبده كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وانصب قلبك بين يديه كما نصبت شخصك، وطأطِىء برأسك الّذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مستكيناً، والزم قلبك التّواضع والخشوع والتّذلّل والتّبرّي عن الترأّس والتّكبّر، كما وضعت رأسك، وقم بين يدَيه قيامك بين يدي بعض ملوك الزّمان، فإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله فإنّك تجد ــ وجداناً ضروريّاً ــ أنّك تنقهر عند مكالمة الملك ومحاورته، وتلزم معه السّكون[١] والخضوع، وربّما يتبع ذلك رعدة البدن، وتلعثم[٢] اللّسان، ومنشأ ذلك كلّه: الخوف الحادث عن تصوّر عظمته، فكيف يتصوّر جبّار الجبابرة، وملك الدّنيا والآخرة؟.

فعند[٣] ذلك يحصل لك الخوف الّذي هو المقصد الذّاتي من العارف.

وكذلك يحصل الرّجاء عند تصوّر عظمته، واستشعار أنّ الكلّ منه، فإنّ ذلك باعث على رجائه. وقد تأكّد ذلك بالآيات الواردة في باب الخوف والرّجاء.

وكذلك يستلزم الحياء منه، لأنّ المتصوّر عظمة الأمر[٤] لا يزال مستشعراً

---

(١) «ب»: السّكوت.

(٢) تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر: إذا تَمكّثَ فيه وتأنّى. مجمع البحرين ٢: ١٢٣ مادّة (تلعثم).

(٣) «ب» «م»: وعند.

(٤) «م»: الأمير.

تقصيراً، ومتوهّماً ذنباً، وذلك الاستشعار والتّوهّم يوجب الحياء من الله تعالى.

وهذه أُمور مطلوبة من العابد، بل قدّر في دوام قيامك في صلواتك(١) أنّك ملحوظ ومرقوب بعين كالِئةٍ من رجل صالح من أهلك وممّن ترغب أن يعرفك بالصّلاح، فإنّه تهدأ عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك، وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلّة الخشوع.

ولو أحسست من نفسك بالتّماسك(٢) والثّبات عند ملاحظة عبد مسكين، فعاتب نفسك وقل لها: يا نفس تدّعين معرفة الله تعالى، أفما تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده؟! أو تخشين النّاس ولا تخشينه وهو أحقّ أن يُخشى؟! ألا تستحي من خالقك ومولاك، إذا قدّرت اطّلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده خيرك ولا نفعك ولا ضرّك، خشعت لأجله جوارحك، وحسنت صلواتك(٣)، ثمّ أنّك تعلمين أنّه مطّلع عليك فلا تخشعين لعظمته، أهُو أهون عندك من عبدٍ من عباده؟! فما أشدّ طغيانَك وجهلك، وما أعظم عداوتك(٤) لنفسك.

ولذلك لمّا قيل للنّبيّ صلّى الله عليه وآله: كيف الحياء من الله تعالى؟ فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (تستحي منه كما تستحي من رجل صالح من قومك)(٥).

وأمّا دوام القيام؛ فهو تنبيه على إدامة القلب مع الله تعالى على نعت واحد من الحضور، قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (إنّ الله مقبل على العبد ما لم يلتفت)(٦).

---

(١) «د»: صلاتك.

(٢) «م»: التّماسك.

(٣) «د»: صلاتك. (٤) «ب»: عدوانك.

(٥) إحياء علوم الدّين ١: ٢٩٨، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٣.

(٦) إحياء علوم الدّين ١: ٣٠٢، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٩ وفيها: المصلّي ـ بدل ـ العبد.

وكما تجب حراسة العين والرّأس عن الالتفات إلى غير الصّلاة، فكذلك تجب حراسة السّرّ عن الالتفات إلى غير الصّلاة، فإن التفت إلى غيرها فذكّره باطّلاع الله تعالى عليك، وقبح التّهاون بالمناجَى مع غفلة المناجي، ليعود إلى التّيقّظ.

والزم الخشوع الباطني، فإنّه ملزوم الخشوع ظاهراً، ومهما خشع الباطن خشع الظّاهر، قال صلّى الله عليه وآله وقد رأى مصلّياً يعبث بلحيته: (أمّا هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه)[١] فإنّ الرّعيّة بحكم الرّاعي، ولهذا ورد في الدّعاء: **«اللّهم اصلح الرّاعي والرّعيّة»**[٢] وهو القلب والجوارح، وكلّ ذلك يقتضيه الطّبع بين يدي من يعظم من أبناء الدّنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك وجبّار الجبابرة؟ ومن يطمئنّ بين يدي غير الله تعالى خاشعاً ثمّ تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله تعالى، وعن اطّلاعه على سرّه وضميره وتدبّر قوله تعالى: **«الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»**[٣].

الثّانية: النّيّة، ووظيفتها: العزم على إجابة الله تعالى في امتثال أمره بالصّلاة وإتمامها، والكفّ عن نواقضها ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله تعالى رجاء ثوابه، وطلب القربة منه إن عجزت عن مرتبة عبادته، لكونه أهلاً للعبادة الّتي هي عبادة الأحرار، فإذا فاتتك درجة الأحرار الأ برار فلا تفوتك درجة التّجّار، وهي العمل رجاء العوض[٤]، فإن فاتتك هذه المرتبة فاجلس مع العبيد في مجالسهم، وشاركهم في مقاصدهم، فإنّهم إنّما يعملون ويخدمون في الغالب خوفاً من الضّرب والعقوبة، وهي غاية الخوف من العقاب.

---

(١) إحياء علوم الدّين ١: ٣٠٢، شرح نهج البلاغة ١١: ١٩٥، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٩.

(٢) إحياء علوم الدّين ١: ٣٠٢، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٩.

(٣) الشّعراء: ٢١٩.

(٤) «م»: رجاءاً للثّواب.

وتقلّد[١] في نيّتك وقصدك المنّة له[٢] تعالى وتقدّس بإذنه إيّاك في المناجاة مع سوء أدبك، وكثرة عصيانك، وعظّم في نفسك قدر مناجاته، وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفرّ وجهك من الخوف، كما روي فيما تقدّم عن بعض أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وآله، قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه؛ فإذا حضرت الصّلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء[٣].

وقال الصّادق عليه السّلام: (الإخلاص بجميع حواصل الأعمال، وهو معنىً مفتاحُهُ القبول)[٤].

وأدنى حدّ الإخلاص بذل العبد طاقته، ثمّ لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب[٥] به على ربّه مكافأة بعمله[٦]، فإنّه لو طالبه بوفاء حقّ العبوديّة لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدّنيا السّلامة من جميع الآثام، وفي الآخرة النّجاة من النّار، والفوز بالجنّة.

وقال عليه السّلام: (صاحب النّيّة الصّادقة صاحب القلب السّليم)[٧] لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات تخلّص النّيّة لله تعالى في الأمور كلّها، قال الله تعالى: «يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلَّا مَنْ أَتَىٰ ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»[٨].

---

(١) «م»: تفكّر.

(٢) «ب»: لله.

(٣) راجع ص: ١٠٤.

(٤) مصباح الشّريعة: ٤٢٠، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٤ وقد ورد في بعض المصادر؛ هكذا: (الإخلاص يجمع فواضل الأعمال).

(٥) «ب» «م»: يوجب.

(٦) «م»: لعمله.

(٧) مصباح الشّريعة: ٣٧، المحجّة البيضاء ١: ٣٨٤.

(٨) الشّعراء: ٨٨.

ثمّ النّيّة تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة ، وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوّته وضعفه ، وصاحب النّيّة الخالصة ، نفسه وهواه معه مقهوران تحت سلطان تعظيم الله تعالى والحياء منه .

الثّالثة : التّكبير، ومعناه أنّ الله سبحانه أكبر من كلّ شيء ، أو أكبر من أن يوصف ، أو من أن يدرك بالحواس ، أو يقاس بالنّاس ، فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك ، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى فالله يشهد أنّك لكاذب ، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم : إنّه صلّى الله عليه وآله رسول الله[١] ، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله وأنت أطوع له منك لله فقد اتّخذته إلهك وكبّرته ، فيوشك أن يكون قولك : «الله أكبر» كلاماً باللّسان المجرّد ، وقد تخلّف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لو لا التّوبة والاستغفار وحسن الظّنّ بكرم الله تعالى وعفوه ، قال الصّادق عليه السّلام : (إذا كبّرت فاستصغر ما بين العُلا والثرى دون كبريائه ، فإنّ الله إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : «يا كاذب ، أتخدعني ، وعزّتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ، ولأحجبنّك عن قربي والمسارّة بمناجاتي»)[٢] .

فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك[٣] ، فإن كنت تجد حلاوتها ، وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسروراً بمناجاته ، ملتذّاً بمخاطباته ، فاعلم أنّه قد صدقك في تكبيرك له ، وإلّا فقد عرفت من سلب لذّة المناجاة ، وحرمان حلاوة العبادة أنّه دليل على تكذيب الله لك ، وطردك عن بابه .

وأمّا دعاء التّوجّه ؛ فأوّل كلماته : قولك : **«وجّهت وجهي للّذي فطر**

---

(١) حكى الله تعالى ذلك عنهم في سورة المنافقين ؛ الآية : ١ .

(٢) مصباح الشّريعة : ٩٢، المحجّة البيضاء ١ : ٣٨٥.

(٣) «د» : صلواتك .

السّماوات والأرض حنيفاً مسلماً» وليس المراد بالوجه الوجه الظّاهر، فإنّك إنّما وجّهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه تقدّس عن[١] أن تحدّه الجهات حتّى تقبل بوجه بدنك عليه، وإنّما وجه القلب هو الّذي يتوجّه إلى الله فاطر السّماوات والأرض، فانظر إلى وجه قلبك أمتوجّه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسّوق وغيرهما، متّبع للشّهوات، أم مقبل على فاطر السّماوات؟

وإيّاك أن يكون مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، فيصرف وجه رحمته عنك وقبوله فيما بقي على الاطلاق، ولن ينصرف الوجه إلى الله إلّا بالانصراف عمّا[٢] سواه، فإنّ القلب بمنزلة مرآة وجهها صقيل، وظهرها كمد[٣][٤]، لايقبل انطباع الصّور، فإذا توجّهت إلى شيء انطبع فيها واستدبرت غيره ولا يمكن انطباعه. ولهذا كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين؛ كلّما قربت من إحداهما بَعُدتَ عن الأُخرى، فاجتهد في الحال في صرفه إليه، وإن عجزت عنه على الدّوام ليكون قولك في الحال صادقاً عسى أن يسامحك في الغفلة بعد ذلك.

وإذا قلت: **«حنيفاً مسلماً»** فينبغي أن يحضر[٥] في بالك أنّ المسلم هو الّذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وتندم على ما سبق من الأحوال.

وإذا قلت: **«وما أنا من المشركين»** فاحضر ببالك الشّرك الخفيّ، وأنّ قوله تعالى: **«فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»**[٦].

---

(١) «ح» «د»: من.

(٢) «ح»: عمّن.

(٣) «ح»: كَدِر.

(٤) الكُمْدَة: تغيّر اللّون وذهاب صفائه. مجمع البحرين ٢: ٧١ مادّة (كمد).

(٥) «م»: تحضر.

(٦) الكهف: ١١٠.

جعل من يقصد بعبادة ربّه وجه الله وحمد النّاس مشركاً ، فاستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنّك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشّرك ، فإنّ اسم الشّرك يقع على القليل والكثير منه .

فإذا قلت : «**محياي ومماتي لله**» فاعلم أنّ هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيّده ، وأنّه إن صدر ممّن غضبه ورضاه ، وقيامه وقعوده ، ورغبته في الحياة ، ورهبته من الموت لأمور الدّنيا ، لم يكن ملائماً للحال .

الرّابعة : القراءة ، ووظائفها لا تكاد تنحصر ، ولا تحيط بها قوّة البشر ، وإن اعتني بشأنها يخرج عن وضع الرّسالة ، لأنّها حكاية كلام الله جلّ جلاله ؛ المشتمل على الأساليب العجيبة ، والأوضاع الغريبة ، والأسرار الدّقيقة ، والحكم الأنيقة .

وليس المقصود منه مجرّد حركة اللّسان ، بل المقصود معانيها وتدبّرها لتستفيد منها حكمة ، وحقائق ، وأسراراً ، وترغيباً ، وترهيباً ، وأمراً ، ونهياً ، ووعداً ، ووعيداً ، وذكر أنبيائه ، ونعمه(١) ، إلى غير ذلك من الفوائد .

فإذا قلت : «**أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم**» فاعلم أنّه عدوّك ، ومترصّد لصرف(٢) قلبك عن الله تعالى حسداً لك على مناجاتك مع الله تعالى وسجودك له ، مع أنّه لعن بسبب سجدة واحدة تركها .

وانّ استعاذتك بالله منه بترك ما يحبّه وتبديله(٣) بما يحبّ الله تعالى لا بمجرّد قولك : «**أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم**» فإنّ من قصده سبع أو عدوّ ليفترسه أو يقتله فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين ، وهو ثابت في مكانه ، انّ ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيده(٤) إلّا تبديل المكان ، فكذلك من يتّبع الشّهوات الّتي هي محلّ الشّيطان

---

(١) «ب» : نعمته.

(٢) «ح» : لصدّ.

(٣) «ح» «د» «م» : تبدّله.

(٤) «م» : يعيذه.

ومكاره الرّحمن ، فلا يغنيه[١] مجرّد القول ، فليقترن[٢] قوله بالعزم على التّعوّذ بحصن الله تعالى عن شرّ الشّيطان، وحصنه « لا إله إلّا الله » إذ قال الله تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا صلّى الله عليه وآله : «لا إله إلّا الله حصني»[٣] والمتحصّن به من لامعبود له سوى الله تعالى ، فأمّا من اتّخذ إلٰهه هواه فهو في ميدان الشّيطان لا في حصن الله.

ومن دقائق مكائده أن يشغلك في الصّلاة بفكر الآخرة وتدبّر فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ[٤] .

فاعلم أنّ كلّ ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس ، فإنّ حركة اللّسان غير مقصودة ، بل المقصود معانيها ــ كما مرّ ــ والنّاس في القراءة على ثلاثة أقسام :

فمنهم : من يحرّك لسانه بها ولا يتدبّر قلبه لها ، وهذا من الخاسرين الدّاخلين في توبيخ الله سبحانه وتهديده ، بقوله تعالى «**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**»[٥] ودعاء نبيّه صلّى الله عليه وآله بقوله : (ويلٌ لمن لاكها[٦] بين لحييه ثمّ لم يتدبّرها)[٧] .

ومنهم : من يتحرّك[٨] لسانه ، وقلبه يتبع اللّسان ، فيسمع ويفهم منه كأنّه يسمعه[٩] من غيره ، وهذه درجة أصحاب اليمين .

---

(١) «ب» «م» : يعينه.

(٢) «ب» : فليقرن.

(٣) عيون أخبار الرّضا ٢ : ١٣٦، إحياء علوم الدّين ١ : ٣٠٠، المحجّة البيضاء ١ : ٣٨٧.

(٤) «د» : تقوله.

(٥) محمّد : ٢٤.

(٦) اللّوك : إدارة الشّيء في الفم. مجمع البحرين ٢ : ١٥٤ مادّة (لوك).

(٧) مجمع البحرين ٢ : ١٥٤ مادّة (لوك).

(٨) «ب» «م» : يحرّك .

(٩) «م» : يسمع.

ومنهم : من يسبق قلبه إلى المعاني أوّلاً ، ثمّ يخدم اللّسان قلبه فيترجمه ، وهذه درجة المقرّبين.

وفرق جليّ بين أن يكون اللّسان ترجمان القلب ـ كما في هذه الدّرجة ـ وبين أن يكون معلّمه ـ كما في الدّرجة الثّانية ـ فالمقرّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ، ولا يتبعه القلب.

وتفصيل ترجمة المعاني ـ على سبيل الاقتصار ـ : أنك إذا قلت : «بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمْ»(١) فانو به التبرّك لابتداء القراءة بكلام(٢) الله تعالى ، وافهم أنّ معناه أنّ الأُمور كلّها بالله ، وأنّ المراد ها هنا بالاسم هو المسمّى ، وإذا كانت الأُمور كلّها بالله ، فلا جرم ، كان الحمد(٣) لله.

فإذا قلت : «ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمْ»(٤) فاحضر في قلبك أنواع لطفه ، ليتّضح(٥)

---

(١) الفاتحة : ١.

(٢) «ب» «م» : لكلام.

(٣) الحمد هو الثّناء بالجميل على قصد التّعظيم والتّبجيل للممدوح سواء النّعمة وغيرها، والشّكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم، لكونه منعماً سواء كان باللّسان أو بالجنان أو بالأركان، وعليه قول القائل :

أفادتكم النّعماء منّي ثلاثة ... يدي ولساني والضّمير المحجّبا

فالحمد أعمّ من جهة المتعلّق وأخصّ من جهة المورد، والشّكر بالعكس. وفي الحديث : (الحمدُ رأسُ الشّكر) وإنما جعله رأس الشّكر، لأنّ ذكر النّعمة باللّسان والثّناء على موليها أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللّسان الّذي هو النّطق المفصح عن كلّ خفيّ. كذا في الكشّاف.

وفيه (الحمدُ لله الواصلِ الحمدَ بالنّعم والنّعم بالشكر) [نهج البلاغة، صبحي الصّالح : ١٦٩].

قال بعض الشّارحين : يعني أنّه تعالى أنعم على سبيل التّفضّل أوّلاً، ثمّ أمر المكلّفين أن يحمدوه على نعمه؛ كما هو مركوز في بداية العقول، ثمّ زادهم على حمدهم نعماً أُخرى؛ كما قال : «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» ويمكن أن يقال : إنّه تعالى تفضّل بالنّعم أوّلاً، ثمّ أوصل ذلك بنعمة الحمد؛ بأنْ ألهَمَ عبادَه الحمدَ عليها، ثمّ أوصل النّعم بالشّكر؛ حيث قال : «لَئِنْ شكرتُمْ لأزيدنّكُمْ». مجمع البحرين ١ : ٥٦٩ مادّة (حمد).

(٤) الفاتحة : ٣. (٥) «ب» : لتنفتح.

لك رحمته ، فينبعث به رجاؤك .

ثمّ استشعر[١] من قلبك التّعظيم والخوف بقولك : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[٢] أمّا العظمة ؛ فلأنّه[٣] لا ملك إلاّ له ، وأمّا الخوف ؛ فلهول يوم الجزاء والحساب الّذي هو مالكه .

ثمّ جدّد الإخلاص بقولك : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»[٤] وتحقّق أنّه ما تيسّرت طاعتك إلاّ بإعانته ، وأنّ المنّة له ؛ إذ وفّقك لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلاً لمناجاته ، ولو حرمك التّوفيق لكنت من المطرودين مع الشّيطان الرّجيم اللّعين .

ثمّ إذا فرغت عن التّفويض بقولك : «بسم الله» وعن التّحميد ، وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً ، فعيّن سؤالك ، ولا تطلب إلاّ أهمّ حاجاتك ، وقل : «أهدِنَا ألصِّرَاطَ ألْمُسْتَقِيمْ»[٥] الّذي يسوقنا إلى جوارك ، ويفضي بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً ، واستشهد بالّذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النّبيّين والصّديقين والصّالحين دون الّذين غضب [الله تعالى][٦] عليهم من الكفّار والزّائغين من اليهود والنّصارى والصّابئين .

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم ، فيما أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله : (قَسَمْتُ الفاتحة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ، يقول العبد : الحمد لله ربّ العالمين ، فيقول الله : حَمدَني عبدي

(١) «د» «ب» : استثِرْ .

(٢) الفاتحة : ٤ .

(٣) «ح» «م» : فإنّه .

(٤) الفاتحة : ٥ .

(٥) الفاتحة : ٦ .

(٦) ليست في «د» «ب» .

وأثنى عليّ ، وهو معنى قوله : «سمع الله لمن حمده» ...)[١] .

فلو لم يكن من صلاتك حظّ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته ، فناهيك به غنيمة ، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ .

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السّورة، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده ، ومواعظه وأخبار أنبيائه ، وذكر مننه[٢] وإحسانه ، فلكلّ واحد[٣] حقّ ، فالرّجاء حقّ الوعد ، والخوف حقّ الوعيد ، والعزم حقّ الأمر والنّهي ، والاتّعاظ حقّ الموعظة ، والشّكر حقّ تذكّر المنّة ، والاعتبار حقّ أخبار الأنبياء .

وتفصيل وظيفة قراءة القرآن لا يحتمله هذا المحل ، لكنّا نذكر جملة منه في آخر الفصل .

وبالجملة : ففهم معاني القرآن يختلف بحسب درجات الفهم ، والفهم يختلف بحسب وفور العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر ، والصّلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات ، فهذا حقّ القراءة ، وهو أيضاً حقّ الأذكار والتّسبيحات .

ثمّ تراعي الهيئة في القراءة زيادة على التّدبّر ، فترتّل ولا تسرد ؛ فإنّ ذلك أيسر للتّأمّل ،وتفرّق بين نغماته في آية الرّحمة والعذاب ، والوعد والوعيد ، والتّمجيد والتّعظيم .

ويروى أنّه يقال لقارىء القرآن : «اقرأ وارْقَ ورتّل ، كما كنت ترتّل في الدّنيا»[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدّين ١ : ٣٠١، المحجّة البيضاء ١ : ٣٨٨ وفيها : قَسَمْتُ الصّلاة...

(٢) «ب» «م» : منّته.

(٣) ليست في «ب».

(٤) إحياء علوم الدّين ١ : ٣٠٢، كما أخرجه النّسائي ١ : ٣٣٨، والتّرمذيّ ١١ : ٣٦، وجاء في المحجّة البيضاء ١ : ٣٨٩.

ومن وظائف القراءة من الأثر قول الصّادق عليه السّلام : (من قرأ القرآن ولم يخضع له ، ولم يرقّ قلبه ، ولم ينشىء حزناً ووجلاً في سرّه ، فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسراناً مبيناً ، فقارىء القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال ، فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشّيطان الرّجيم ، قال الله تعالى : «**فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمْ**»(١) ، واذا تفرّغ نفسه من الأسباب تجرّد قلبه للقراءة ، فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن وفوائده ، وإذا اتّخذ مجلساً خالياً واعتزل من الخلق بعد أن أتى بالخصلتين الأُولين استأنس روحه وسرّه بالله ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصّالحين ، وعظم(٢) لطفه بهم ، ومقام اختصاصه لهم بقبول كراماته وبدائع إشاراته ، فإذا شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ لا يختار على ذلك(٣) الحال حالاً ، ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كلّ طاعة وعبادة ، لأنّ فيه المناجاة مع الرّب بلا واسطة ، فانظر كيف تقرأ كتاب ربّك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده ، فإنّه كتاب «**عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ ٱلبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدْ**»(٤) فرتّله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكّر في أمثاله ومواعظه ، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده)(٥) .

الخامسة : الرّكوع ، فإذا وصلت إليه فجدّد على قلبك ذكر كبرياء الله تعالى وعظمته ، وخساسة كلّ ما سواه وتلاشيه ، فارفع يديك له وقل : «**الله أكبر**» مستجيراً في رفعك بعفو الله من عقابه ، ومتّبعاً سنّة نبيّه ، ثمّ تستأنف له ذلاً وتواضعاً

---

(١) النّحل : ٩٨.

(٢) في المصادر: عَلِمَ.

(٣) «ح» : هذه.

(٤) فصّلت : ٤١، ٤٢.

(٥) مصباح الشّريعة : ٩٦، المحجّة البيضاء ٢ : ٢٤٩.

بركوعك، واجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك، وعزّ مولاك واتّضاعك وعلوّ ربّك، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبّح ربّك وتنزّهه، وتشهد له بالعظمة والكبرياء، وأنّه أعظم من كلّ عظيم بقولك: **«سبحان ربّي العظيم وبحمده»** وتكرّر ذلك على لسانك وقلبك، لتؤكّده بالتّكرار، وتقرّره في ذاتك بالتّذكار، وكلّما أ كثرت منه وازددت خضوعاً، زدت عند مولاك[(١)] رفعة.

ثمّ ترتفع من ركوعك راجياً أنّه راحم ذلك، وتؤكّد الرّجاء في قلبك بقولك: **«سمع الله لمن حمده»** أي: أجاب الله لمن حمده وشكره.

ثمّ تردف ذلك بالشّكر المتقاضي للمزيد، فتقول: **«الحمد لله ربّ العالمين»** وفي ذلك غاية الخضوع ومزيد التّذلّل إذا راعيت ذلك بالحقيقة، وقد قال الصّادق عليه السّلام: (لا يركع عبد ركوعاً على الحقيقة إلّا زيّنه الله تعالى بنور بهائه، وأظلّه في ظلال كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه، والرّكوع أوّل، والسّجود ثان، فمن أتى [بمعنى الأوّل][(٢)] صلح للثّاني، وفي الرّكوع أدب، وفي السّجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاضع لله [عزّ وجلّ][(٣)] بقلب متذلّل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزنٍ على ما يفوته من فائدة[(٤)] الرّاكعين، وحكي أنّ الرّبيع بن خثيم[(٥)] كان يسهر باللّيل إلى الفجر في ركعة

(١) «ب»: ربّك.

(٢) في المصباح: بالأوّل.

(٣) أضفناه من المصدر.

(٤) «ح»: فوائد.

(٥) قال الكشّيّ في الزّهاد الثّمانية: عليّ بن محمد بن قتيبة، قال: سئل أبومحمّد الفضل بن شاذان عن الزّهاد الثّمانية، فقال: الرّبيع بن خثيم، وهرم بن حيّان، وأوس القرنّي، وعامر بن عبدقيس؛ فكانوا مع عليّ عليه السّلام ومن أصحابه، وكانوا زهّاداً أتقياء. وقال عنه الغزاليّ في كتابه «إحياء علوم الدين» الباب السّادس من الكتاب العاشر: كان الرّبيع بن خثيم حفر في داره قبراً، وكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه واضطجع ومكث ما شاء الله، ثمّ يقول: «ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما ←

واحدة، فإذا هو أصبح تزفّر وقال: «آه، سبق المخلصون، وقطع بنا»، واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط عن همّتك في القيام بخدمته إلّا بعونه، وفرّ بالقلب من وساوس الشّيطان وخدائعه ومكائده، فإنّ الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أُصول التّواضع والخضوع والخشوع بقدر اطّلاع عظمته على سرائرهم)[1].

السّادسة: السّجود، وهو أعظم مراتب الخضوع، وأحسن درجات الخشوع، وأعلى مراتب الاستكانة[2]، وأحقّ المراتب باستيجاب القرب إلى الله تعالى، وتلقّي أنوار رحمته، ومعاطف كرمه، كما نبّه عليه الكتاب الكريم في أمره لنبيّه أن يسجد، ووعده على ذلك بأن يقترب[3].

←

تركت» يردّدها ثمّ يردّ على نفسه: ياربيع، قد أرجعناك فاعمل. وعن مصباح الشّريعة، للشّيخ أبي الحسن سليمان بن الحسن الصّهرشتيّ ـ من مشاهير تلامذة شيخ الطّائفة ـ: أنّه كان يضع قرطاساً بين يديه؛ فيكتب مايتكلّم به ثمّ يحاسب نفسه في عشيّته؛ مالَهُ، وماعليه، ويقول: آه، آه؛ نجى الصّامتون. وقال الشّيخ البهائيّ ـ رحمه الله ـ في كشكوله؛ إنّه: قيل للرّبيع بن خثيم: مانراك تغتاب أحداً؟ فقال: لست عن نفسي راضياً، فأتفرّغ لذمّ النّاس، ثمّ أنشد:

لنفسي أبكي لَسْتُ أبكي لغيرِهَا ... لنفسيَ عن نفسي عن النّاس شاغِلُ

وفيه أيضاً: إنّ من جملة كلمات الرّبيع: لو كانت الذّنوب تفوح، ما جلس أحد في جنب أحد.

ومنها: إنّ العَجب من قوم يعملون لدار يبعدون منها كلّ يوم مرحلة، ويتركون العمل لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة، وكان يقول: إنْ عوفينا من شرّ ما أُعطينا، لم يضرّنا ما زوي عنّا.

قال: ولمّا رأت أُمّ الرّبيع مايلقى هو من البكاء والسّهر، قالت له: يابني، لعلّك قتلتَ قتيلاً؟ قال: نعم، ياأُمّاه، قالت: ومن هو، حتّى يطلب إلى أهله، فيعفوا عنك، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك؟ فقال: ياأُمّاه، هي نفسي هذه... قيل: إنّه مات سنة ٦١هـ، وقيل: سنة ٦٣هـ. رجال الكشّيّ: ٩٧، تنقيح المقال ١: ٤٢٤، معجم رجال الحديث ٧: ١٧٠.

(١) مصباح الشّريعة: ١٠٣، المحجّة البيضاء ١: ٣٩٠.

(٢) استكانَ: خَضَعَ وذَلّ. مجمع البحرين ١: ٣٩٤ مادّة (سكن).

(٣) في قوله تعالى من سورة العلق: ١٩.

فإذا أردت السّجود فاستحضر عظمة الله تعالى زيادة على ما حضر حالة الرّكوع ، وكبّره رافعاً يديك وأنت قائم ، ثمّ أهوِ إلى السّجود ، ومكّن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذلّ الأشياء وهو التّراب ، فإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنّه أجلب للخشوع ، وأدلّ على الذّلّ والخضوع .

وهذا هو السّرّ في منع الشّريعة من السّجود على ما يأكله الآدميّون ويلبسونه ، لأنّه من متاع الدّنيا وأهلها الّذين اغترّوا بغرورها ، وركنوا إلى زخرفها ، واطمأنّوا إليها ، فأسلمتهم إلى المهالك أحوج ما كانوا إليها .

وإذا وضعت نفسك موضع الذّلّ ، فاعلم أنّك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله ، فإنّك من التّراب خلقت وإليه رددت ، ثمّ تخرج منها مرّة أُخرى .

فاحضر في بالك تنقّلاتك[1] منها وإليها ، ثمّ خروجك منها بتكرّر السّجود كما ذكره الله تعالى لك بقوله : «**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**»[2] .

وعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله تعالى وعلوّه وقل : «**سُبحانَ ربّيَ الأعْلى وبحمدِهِ**» وأكّده بالتّكرار ، فإنّ المرّة الواحدة ضعيفة الأثر في القلب .

فإذا رقّ قلبك وظهر لك ذلك فليصدق رجاؤك في رحمة ربّك ، فإنّ رحمته تتسارع إلى الضّعف والذّلّ لا إلى التّكبّر والبطر[3] ، فارفع رأسك مكبّراً وسائلاً حاجتك ، ومستغفراً من ذنوبك ، ثمّ أكّد التّواضع بالتّكرار ، وعد إلى السّجود ثانياً كذلك ، فبزيادته يزيد القرب ، وبتكراره تتأكّد السّوانح الإلهيّة ، وتظهر اللّوامع الغيبيّة ، إذا وقع على وجهه .

---

(١) «ح» : نقلا تك .

(٢) طه : ٥٥ .

(٣) البَطَرْ: سوء احتمال الغنى ، والطّغيان عند النّعمة . مجمع البحرين ١ : ٢١١ مادّة (بطر).

قال الصّادق عليه السّلام: (ما خسر والله من أتى بحقيقة السّجود ولو كان في العمر مرّة واحدة، وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه غافلٍ لاهٍ عمّا أعدّ الله للسّاجدين من أُنس العاجل وراحة الآجل، ولا بَعُدَ[١] عن الله أبداً من أحسن تقرّبه[٢] في السّجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده، فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم أنّه خلق من تراب يطأه[٣] الخلق، وأنّه اتّخذك من نطفة يستقذرها كلّ أحد، وكوّن ولم يكن، وقد جعل الله معنى السّجود سبب التّقرّب إليه بالقلب والسّرّ والرّوح، فمن قرب منه بَعُدَ من[٤] غيره، ألا ترى في الظّاهر أنّه لا يستوي حال السّجود إلّا بالتّواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كلّ ما تراه العيون؟ كذلك أمر الباطن، فمن كان قلبه[٥] متعلّقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشّيء، بعيدٌ عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته، قال الله عزّ وجلّ: «**مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**»[٦]، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: (قال الله تعالى: لا أطّلع على قلب عبد فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلّا تولّيت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، مكتوب اسمه في ديوان الخاسرين)[٧].

السّابعة: التّشهّد، إذا جلست للتّشهّد بعد هذه الأفعال الدّقيقة، والأسرار

---

(١) «م»: يبعُد.

(٢) «ب»: أدبه.

(٣) «ب»: تطأه.

(٤) «ب»: عن.

(٥) في المصباح: ظنه.

(٦) الأحزاب: ٤.

(٧) مصباح الشّريعة: ١٠٨، المحجّة البيضاء ١: ٣٩١.

العميقة المشتملة على الأخطار الجسيمة ، والأهوال العظيمة ، فاستشعر الخوف التّام ، والرّهبة والحياء والوجل أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصّلاً لوظيفته وشرطه ، ولا مكتوباً في ديوان المقبولين .

فاجعل يدك صفراً من فوائدها ، إلّا أن يتداركك الله برحمته ، ويقبل عملك النّاقص بفضله ، وارجع إلى مبدأ الأمر وأصل الدّين ، واستمسك بكلمة التّوحيد وحصن الله تعالى الّذي من دخله كان آمناً إن لم يكن حصل في يدك غيره ، واشهد له بالوحدانيّة ، واحضر رسوله الكريم(١) ونبيّه العظيم(٢) ببالك ، واشهد له بالعبوديّة والرّسالة ، وصلّ عليه وعلى آله مجدّداً عهد الله(٣) بإعادة كلمتي الشّهادة ، متعرّضاً بهما لتأسيس مراتب السّعادة ، فإنّهما أوّل(٤) الوسائل ، وأساس الفواضل ، وجماع أمر الفضائل ، مترقّباً لإجابته صلّى الله عليه وآله لك بصلاتك عشراً من صلاته إذا قمت بحقيقة صلاتك عليه الّتي لو وصل إليك منها واحدة أفلحت أبداً .

وقال الصّادق عليه السّلام : (التّشهّد ثناء على الله تعالى ، فكن عبداً له في السّرّ ، خاضعاً له في الفعل ؛ كما أنّك عبد له بالقول والدّعوى وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك ، فإنّه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقّق عبوديّتك له بربوبيّته لك ، وتعلم أنّ نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلّا بقدرته ومشيّته ، وهم عاجزون عن إتيان أقلّ شيء في مملكته إلّا بإذنه وإرادته ، قال الله عزّ وجلّ : «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»(٥) ، فكن [لله](٦) عبداً شاكراً(٧)

---

(١) «ب» : المكرّم.

(٢) «ب» : المعظّم.

(٣) «ب» «م» : عهداً لله.

(٤) «ب» «م» : أولى.

(٥) القصص : ٦٨.

(٦) أضفناه من المصدر.

(٧) «ب» : ذاكراً.

[بالفعل ؛كما أنّك عبد ذاكر][(١)] بالقول والدّعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنّه خلقك فعزّ وجلّ أن تكون إرادة ومشيّة لأحد إلّا بسابق إرادته ومشيّته، فاستعمل العبوديّة في الرّضا بحكمه[(٢)] وبالعبادة في أداء أوامره، وقد أمرك بالصّلاة على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله، فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألّا تفوتك بركات معرفة حرمته، فتحرم عن فائدة صلاته وأمره بالاستغفار لك والشّفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنّهي، والسّنن والآداب، وتعلّم جليل مرتبته عند الله عزّ وجلّ[(٣)].

الثّامنة: التّسليم، وإذا فرغت من التّشهّد فاحضر نفسك بحضرة سيّد المرسلين والملائكة المقرّبين، وقل: «**السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته**» إلى آخر التّسليم المستحب.

ثمّ احضر في بالك النّبيّ صلّى الله عليه وآله وبقيّة أنبياء الله، وأئمّته عليهم السّلام، والحفظة لك من الملائكة المقرّبين، المحصين لأعمالك، وقل: «**السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته**».

ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور مخاطب[(٤)] في ذهنك، فتكون من العابثين واللّاعبين، وكيف يسمع الخطاب لمن لا يقصد المخاطبْ، لولا فضل الله تعالى ورحمته الشّاملة، ورأفته الكاملة في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب، وإن كان بعيداً عن درجات القبول، منحطّاً عن أوج القرب والوصول؟

فإن كنت إماماً لقوم فاقصدهم بالسّلام مع مَن تقدّم من المقصودين، وليقصدوا هم الرّدّ عليك أيضاً، ثمّ يقصدوا مقصدك بسلام ثان، فإذا فعلتم ذلك فقد

---

(١) ليست في «ب» «م» والمصدر.

(٢) في المصدر: بحكمته.

(٣) مصباح الشّريعة: ١١٤، المحجّة البيضاء ١: ٣٩٣.

(٤) «ب»: مخاطبك.

أدّيتم وظيفة السّلام، واستحققتم من الله تعالى مزيد الإكرام.

وأصل السّلام مشترك بين التّحيّة الخاصّة، وبين الاسم المقدّس من أسماء الله تعالى، والمعنى هنا[(١)] على الأوّل ظاهر، وعلى الثّاني يكون مستعاراً في الخلق بإذن الله تعالى، للتّفاؤل[(٢)] بالسّلام والأمان من عذاب الله تعالى لمن قام بحدوده.

قال الصّادق عليه السّلام: (معنى السّلام في دبر كلّ صلاة الأمان، أي: من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله [خاضعاً له][(٣)] خاشعاً منه قلبه[(٤)]، فله الأمان من بلاء الدّنيا و براءة من عذاب الآخرة، والسّلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحّة معاشرتهم.

وإن[(٥)] أردت أن تضع السّلام موضعه، وتؤدّي معناه فاتّق الله وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألّا تدنّسها بظلمة المعاصي، ولتسلم [منك][(٦)] حفظتك، أن لا تبرمهم ولاتملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثمّ صديقك ثمّ عدوّك، فإن لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السّلام مواضعه هذه، فلا سلام ولا [إسلام ولا][(٧)] تسليم، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق)[(٨)].

---

(١) «د»: ها هنا.

(٢) «ح»: للتفأل.

(٣) أضفناه من المصدر.

(٤) ليست في المصدر.

(٥) «ح»: إذا.

(٦) أضفناه من المصدر.

(٧) أضفناه من المصدر.

(٨) مصباح الشّريعة: ١١٩، المحجّة البيضاء ١: ١٩٤.

تتمّة الفصل

إذا أتيت بالصّلاة على ما وصفت[1] لك فاختمها بالخشوع والخضوع والخوف من منقلب الرّدّ وخيبة الحرمان، واستشعر شكر الله تعالى على توفيقه لإتمام هذه الطّاعة، وتوهّم أنّك مودّع في صلاتك هذه، وأنّك ربّما لا تعيش [على مثلها][2] كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (صلّ صلاة مودّع)[3].

ثمّ استشعر قلبك الحياء من التّقصير في الصّلاة، والخوف من أن تلفّ فيضرب بها وجهك، فإذا فعلت ذلك رجوتُ أن تكون من الخاشعين الّذين هم على صلاتهم يحافظون، والّذين هم على صلاتهم دائمون.

واعرض صلاتك على هذا الوصف، فبقدر ما تيسّر منها كذلك ينبغي أن تفرح وترجو، وعلى ما يفوتك ينبغي أن تتحسّر وتجتهد في مداواة قلبك، فإنّ صلاة الغافلين مرتع إبليس اللّعين.

نسأل الله تعالى أن يغمرنا برحمته، ويتغمّدنا بمغفرته؛ إذ لا وسيلة لنا إلّا الاعتراف بالعجز عن القيام بوظائف طاعته.

ثمّ عقّب ذلك كلّه بالاشتغال بالتّعقيب من الذّكر والدّعاء، وبالغ في الإخلاص والانقطاع والابتهال إلى الله تعالى في مغفرة ذنبك، وقبول عملك، وتلقّي طاعتك بيد الرّحمة؛ فإنّ الفضل عميم، والكرم جسيم، والرّحمة واسعة، والجود فائض، والمحلّ قابل.

---

(١) «ب» «د»: وُصِفَ.

(٢) «ب» «د»: لمثلها.

(٣) إحياء علوم الدّين ١: ٣٠٤، المحجّة البيضاء ١: ٣٩٤.

وخلاصة وظائف الدّعاء عقيب الصّلاة وغيرها : ما قاله مولانا الصّادق عليه السّلام : (احفظ أدب الدّعاء ، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولما[(١)] تدعو، وحقّق عظمة الله تعالى وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطّلاعه على سرّك، وما تكنّ[(٢)] فيه من الحقّ والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء [عسى][(٣)] فيه هلاكك، وأنت تظنّ أنّ فيه نجاتك، قال الله عزّ وجلّ: «وَيَدْعُ الإنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً»[(٤)]، وتفكّر ماذا تسأل، ولماذا تسأل، والدّعاء استجابة الكلّ منك للحقّ، وتذويب المهجة في مشاهدة الرّبّ، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلّها ظاهرها وباطنها إلى الله؛ فإن لم تأت بشرط الدّعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنّه يعلم السّرّ وأخفى، فلعلّك تدعوه بشيء قد علم من نيّتك بخلاف[(٥)] ذلك، قال بعض الصّحابة لبعضهم : أنتم تنتظرون المطر بالدّعاء، وأنا أنتظر الحجر. واعلم أنّه لو لم يكن أمرنا الله بالدّعاء، لكنّا إذا أخلصنا الدّعاء تفضّل علينا بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدّعاء؟ سُئل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم، قال: كلّ اسم من أسماء الله أعظم، وفرّغ قلبك عن كلّ ما سواه، وادعه بأيّ اسم شئت، وليس في الحقيقة لله اسم دون اسم، بل هو الله الواحد القهّار، وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: إنّ الله لا يستجيب الدّعاء من قلب لاه فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدّعاء وأخلصت سرّك لوجهه، فأبشر بإحدى ثلاثة: إمّا أن يتعجّل[(٦)] لك بما سألت.

---

(١) «ب» : ما، وفي المصادر: لماذا.

(٢) في المحجّة : كمن.

(٣) أضفناه من المصادر.

(٤) الإسراء : ١١.

(٥) في المصباح : خلاف.

(٦) «ب» والمصباح : يعجّل.

أو يدّخر لك ما هو أعظم منه.

وإمّا أن يصرف عنك من البلاء[١] ما أن لو أرسله عليك لهلكت، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: قال الله تعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السّائلين»، قال الصّادق عليه السّلام: (لقد دعوت الله مرّة فاستجاب لي ونسيت الحاجة، لأنّ استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجلّ ممّا يريد منه العبد ولو كانت الجنّة ونعيمها الأبد، ولكن لا يفعل[٢] ذلك إلّا العاملون[٣] المحبّون العارفون الفائزون[٤]، صفوة الله وخواصّه) انتهى[٥].

وهو كاف في وظيفة الدّعاء.

وإن عقّبت بشيء من القرآن، فينبغي أن تتدبّر بعض وظائفه، لتقوم بشروطه وتمتثل مرسوم حدوده، كما ينبغي ذلك لكلّ قارىء، وما ورد في ثواب قراءة القرآن والحثّ عليه يخرج ذكره عن موضوع الرّسالة؛ فلنذكر مهمّ وظائفه ملخّصاً، وهو أُمور:

الأوّل: حضور القلب، وترك حديث النّفس، قيل في تفسير قوله تعالى: «يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ»[٦] أي: بجدّ واجتهاد[٧]، وأخذه بالجدّ: أن يتجرّد عند قراءته بحذف جميع المشغلات[٨] والهموم عنه.

الثّاني: التّدبر، وهو طور وراء حضور القلب؛ فإنّ الإنسان قد لا يتفكّر في

---

(١) «د» «م»: البلايا.

(٢) في المصباح و«ح»: يعقل.

(٣) في المصادر: العالمون.

(٤) ليست في المصادر.

(٥) مصباح الشّريعة: ١٢٤، المحجّة البيضاء ١: ٣٠٩.

(٦) مريم: ١٢.

(٧) مجمع البيان ٦: ٧٨١، إحياء علوم الدّين ١: ١٢١.

(٨) «ب»: المشتغلات.

غير القرآن، ولكنّه يقتصر على سماع القرآن وهو لا يتدبّره، والمقصود من التلاوة التدبّر؛ قال الله سبحانه: «أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أمْ عَلَىٰ قلوبٍ أقْفَالُها»(١) «أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً»(٢) وقال تعالى: «وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»(٣) لأنّ التّرتيل يمكّن الإنسان من تدبّر الباطن.

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (لا خيرَ في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبّر فيها)(٤).

وإذا لم يمكن التّدبّر إلّا بالتّرديد فليردّد، قال أبو ذر(٥) رضي الله عنه: قام رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلة يردّد قوله تعالى: «إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمْ»(٦)(٧).

الثّالث: التّفهّم، وهو أن يستوضح من كلّ آية ما يليق بها؛ إذ القرآن يشتمل على: ذكر صفات الله تعالى، وأفعاله، وأحوال أنبيائه، والمكذّبين لهم، وأحوال ملائكته، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنّة والنّار، والوعد والوعيد، فليتأمّل معاني هذه الأسماء والصّفات، لتنكشف له أسرارها، [فإنّ تحتها](٨) أسرار

(١) محمّد: ٢٤.

(٢) النّساء: ٨٢.

(٣) المزّمّل: ٤.

(٤) تحف العقول: ٢٠٤، المحجّة البيضاء ٢: ٢٣٧ وفيهما: عن عليّ عليه السّلام.

(٥) هو: أبوذر الغفاريّ؛ الزّاهد المشهور، الصّادق اللّهجة، واسمه: جندب بن جنادة بن سكن، وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلافاً كثيراً. أسلم والنّبيّ بمكّة، وكان رابع أربعة أو خامس خمسة، صحب النّبيّ صلّى الله عليه وآله بعدما هاجر إلى المدينة إلى أن مات، ويكفي في جلالة شأنه قول النّبيّ له: (ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء؛ أصدق لهجة من أبي ذرّ)، أخرجه التّرمذيّ في صحيحه ٥: ٦٦٩ حديث ٣٨٠١، مات بالرّبذة سنة ٣١هـ، أو ٣٢هـ. الإصابة ٤: ٦٢، أسد الغابة ١: ٣٠١، تذكرة الحفّاظ ١: ١٧.

(٦) المائدة: ١١٨.

(٧) أخرجه ابن ماجة في سننه ١: ٤٢٩ حديث ١٣٥٠، إحياء علوم الدّين ١: ٥١٣، المحجّة البيضاء ٢: ٢٣٧.

(٨) «د» «ب» «م»: فتحتها.

الدّقائق، وكنوز الحقائق.

قال ابن مسعود(١): من أراد أن يعلم علم الأوّلين والآخرين، فعليه بالقرآن، قال الله تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ ٱلبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً»(٢)(٣).

وقال عليّ عليه السّلام: «لو شئتُ لأ وقرتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»(٤).

فمن لم يتفهّم معاني القرآن في تلاوته وسماعه ولو في أدنى المراتب، دخل في قوله تعالى: «أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ»(٥) وقوله تعالى: «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قلوبٍ أَقْفَالُهَا»(٦).

الرّابع: التّخلّي عن موانع الفهم؛ فإنّ أكثر النّاس مُنعوا من فهم القرآن، لأسباب وحُجب أسدَلَها الشّيطان على قلوبهم، فحُجبت عن عجائب أسراره؛ قال صلّى الله عليه وآله: (لولا أنّ الشّياطينَ يَحُومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت)(٧) ومعاني القرآن وأسراره من جملة الملكوت، والحُجب الموانع منها،

---

(١) هو: عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شخص أو شمخ الهُذيل الهذليّ حليف بني زهرة؛ من السّبّاقين إلى الإسلام، شهد بدراً والمشاهد بعدها، وهاجر الهجرتين، لازم النّبيّ صلّى الله عليه وآله، وكان صاحب نعليه. روى عن النّبيّ، وعن عمرو بن سعد بن معاذ، وروى عنه ابناه: عبدالرّحمن وأبو عبيدة، وامرأته زينب، وأبو رافع، وجابر، وأنس، ومسروق، وغيرهم. مات سنة ٣٢، وقيل: ٣٣هـ. الإصابة ٢: ٣٦٨، أسد الغابة ٣: ٢٥٦.

(٢) الكهف: ١٠٩.

(٣) إحياء علوم الدّين ١: ٥١٤، المحجّة البيضاء ٢: ٢٣٩، ٢٥١ وفيهما: من أراد أن يعلم علم الأوّلين والآخرين؛ فليثوّر القرآن.

(٤) إحياء علوم الدّين ١: ٥١٥، ٥٢٥، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤٠.

(٥) النّحل: ١٠٨. (٦) محمّد: ٢٤.

(٧) إحياء علوم الدّين ١: ٥١٥، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤١.

والاشتغال بتحقيق الحروف وإخراجها من مخارجها والتّشدّق بها من غير ملاحظة المعنى.

وقيل: إنّ المتولّي لحفظ ذلك شيطان وكّل بالقرّاء[١]، ليصرف عن معاني كلام الله تعالى، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف، ويخيّل إليهم أنّه لم يخرج من مخرجه، فيكون تأمّله مقصوراً على مخارج الحروف[٢]؛ فمتى تنكشف له المعاني؟!

وأعظم ضحكة للشّيطان مَن كان مطيعاً لمثل هذا التّلبيس، ومنها: أن يكون مبتلى من الدّنيا بهوى مطاع؛ فإنّ ذلك سبب لظلمة القلب كالصّدأ على المرآة، فيمنع جليّة الحقّ أن يتجلّى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون، وكلّما كانت الشّهوات أكثر تراكماً على القلب، كان البعد عن أسرار الله أعظم، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله: (الدّنيا والآخرة ضرّتان، بقدر ما تقرب من إحداهما تبعد من[٣] الأخرى)[٤].

الخامس: أن يخصّص نفسه بكلّ خطاب في القرآن من أمر، أو نهي، أو وعد، أو وعيد، ويقدّر أنّه هو المقصود.

وكذلك إن سمع قصص الأوّلين والأنبياء عليهم السّلام علم أنّ مجرّد القصّة غير مقصود، وإنّما المقصود الاعتبار، ولا يعتقد أنّ كلّ خطاب خاصّ في القرآن؛ فالمراد به الخصوص، فإنّ القرآن وسائر الخطابات الشّرعيّة واردة على طريقة «إيّاكِ أعني واسمَعي يا جارة» وهي كلّها نور وهدى ورحمة للعالمين، ولذلك أمر الله تعالى الكافّة بشكر نعمة الكتاب، فقال: «**وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**»[٥].

---

(١) «ب»: بالقرآن، «ح» «د»: بالقراءة.

(٢) إحياء علوم الدّين ١: ٥١٥، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤١.

(٣) «ب» «م»: عن.

(٤) عوالي اللّئالئ ١: ٢٧٧، ٤: ١١٤.

(٥) البقرة: ٢٣١.

وإذا قدّر أنّه المقصود لم يتّخذ دراسة القرآن عملاً، بل قراءة كقراءة العبد كتاب مولاه الّذي كتبه إليه ليتدبّره ويعمل بمقتضاه، قال حكيم: هذا القرآن أتانا من قبل ربّنا بعهوده، نتدبّرها في الصّلاة، ونقف عليها في الخلوات، ونعدّها[١] في الطّاعات، بالسّنن المتّبعات[٢].

السّادس: التّأثّر، وهو أن يتأثّر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهم حال ووجد يتّصف به عندما يوجّه نفسه في كلّ حال[٣] إلى الجهة الّتي فهمها من خوف، أو حزن، أو رجاء، أو غيره، فيستعد بذلك وينفعل، ويحصل له التّأثّر والخشية، ومهما قويت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه؛ فإنّ التّضييق غالب على العارفين، فلا يرى ذكر المغفرة والرّحمة إلّا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها؛ كقوله تعالى: «**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ**»[٤] فإنّه قرن المغفرة بهذه الشّروط الأربعة.

وكذلك قوله تعالى: «**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ...**»[٥] إلى آخر السّورة، وذكر فيها أربعة شروط، وحيث أوجز واختصر ذكر شرطاً واحداً جامعاً للشّرائط؛ فقال تعالى: «**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**»[٦] إذ كان الإحسان جامعاً لكلّ الشّرائط.

وتأثّر العبد بالتّلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة؛ فعند الوعيد يتضاءل[٧] من

---

(١) في المصدر: ننفذها.

(٢) إحياء علوم الدّين ١ : ٥١٨، المحجّة البيضاء ٢ : ٢٤٣.

(٣) «د» : حالة.

(٤) طه : ٨٢.

(٥) العصر : ١، ٢.

(٦) الأعراف : ٥٦.

(٧) أي : يتصاغر، تواضعاً منه لله تعالى. مجمع البحرين ٢ : ٣ مادّة (ضأل).

خشية الله، وعند الوعد يستبشر فرحاً برحمة الله، وعند ذكر الله وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله، وعند ذكر الكفّار في حقّ الله تعالى ما يمتنع عليه كالصّاحبة والولد يغضّ صوته، وينكسر في باطنه، حياءاً من قبح[١] أفعالهم، ويكبّر الله ويقدّسه عمّا يقول الظّالمون، وعند ذكر الجنّة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند ذكر النّار ترعد فرائصه خوفاً منها، ولمّا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لابن مسعود: (اقرأ عليّ) قال: ففتحتُ سورة النّساء، فلمّا بلغت: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً»[٢] رأيتُ عينيه تذرفان من الدّمع، فقال لي: «حَسْبُكَ الآن»[٣]. وذلك لاستغراق تلك الحالة لقلبه بالكلّيّة.

والقرآن إنّما يُراد لهذه الأحوال واستجلابها إلى القلب والعمل بها، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: (اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ولانت عليه جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤنه)[٤].

وقال الله تعالى: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[٥] وإلّا فالمُؤنة في تحريك اللّسان خفيفة.

وروي أنّ رجلاً جاء إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله ليعلّمه[٦] القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ»[٧] فقال: يكفيني هذا، وانصرف، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

---

(١) «ب»: قبيح.

(٢) النّساء: ٤١.

(٣) إحياء علوم الدّين ١: ٥١٩، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤٤، سنن الدّرامي ٢: ٢٤١، إحياء علوم الدّين ١: ٥٢٠، عوالي اللّئالئ ٤: ١١٥ حديث ١٨٠، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤٦. وجاء أيضاً في رواية أُخرى بهذا اللّفظ: (فإذا اختلفتم، فقوموا عنه).

(٤) صحيح البخاري ٦: ٢٤٤.

(٥) الانفال: ٢.

(٦) «د»: ليعلم.

(٧) الزّلزلة: ٧، ٨.

(انصرف الرّجل وهو فقيه)[١].

وأمّا التّالي باللّسان، المعرض عن العمل، فجدير أن يكون المراد بقوله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىٰ» الآية[٢].

وإنّما حظّ اللّسان تصحيح الحروف بالتّرتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الاتّعاظ والتّأثّر بالانزجار والائتمار.

السّابع: التّرقّي، وهو أن يوجّه قلبه وعقله إلى القبلة الحقيقيّة، فيسمع[٣] الكلام من الله تعالى لا من نفسه.

ودرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقدّر العبد كأنّه يقرأ على الله عزّ وجلّ واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه، ومستمع منه؛ فيكون حاله عند هذا التّقدير السّؤال والتّضرع والابتهال.

والثّانية: أن يشهد بقلبه كأنّه سبحانه وتعالى يخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، وهو في مقام الحياء والتّعظيم لمنن الله، والإصغاء إليه، والفهم منه.

الثّالثة: أن يرى في الكلام المتكلّم، وفي الكلمات الصّفات؛ فلا[٤] ينظر إلى قلبه، ولا إلى قراءته، ولا إلى التّعلّق بالإنعام من حيث هو منعم عليه، بل يقصر الهمّ على المتكلّم، و يوقف فكره عليه، ويستغرق في مشاهدته.

وهذه درجة المقرّبين، وعنها أخبر جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السّلام

---

(١) إحياء علوم الدّين ١: ٥٢١، المحجّة البيضاء ٢: ٢٤٦، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٢: ٥٣٢ باختلاف يسير في اللّفظ.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) «ح» «ب»: فيستمع.

(٤) «ح» «د» «م»: ولا.

بقوله: ([والله][١] لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، ولكنّهم لا يبصرون)[٢].

وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصّلاة حتّى خرّ مغشيّاً عليه، فلمّا أفاق[٣]، قيل له في ذلك، فقال: (ما زلتُ أُردّدُ هذه[٤] الآية على قلبي حتّى سمعتها من المتكلّم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته)[٥].

الثّامن: التّبرّي، والمراد به أن يتبرّأ من حوله وقوّته، فلا يلتفت إلى نفسه بعين الرّضا والتّزكية؛ فإذا تلا آيات الوعد ومدح الصّالحين حذف نفسه عن درجة الاعتبار، وشهد فيها الموقنين والصّدّيقين، ويتشوّق إلى أن يلحقه الله بهم، وإذا تلى آيات المقت والذّمّ للمقصّرين شهد نفسه هناك، وقدّر أنّه المخاطَب خوفاً وإشفاقاً.

وإلى هذه المرتبة أشار أميرُ المؤمنين وسيّد الوصيين عليه السّلام في الخطبة الّتي يصف فيها المتّقين بقوله: (وَإذَا مَرُّوا بآيَةٍ فيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ شهيقٌ في آذانِهِمْ...) إلى آخره[٦].

---

(١) أضفناه من المصدر.

(٢) إحياء علوم الدين ١ : ٥٢٢، عوالي اللّئالئ ٤ : ١١٦ حديث ١٨١، المحجّة البيضاء ٢ : ٢٤٧.

(٣) في المصادر: سُري عنه.

(٤) ليست في المصادر.

(٥) إحياء علوم الدين ١ : ٥٢٢، المحجّة البيضاء ٢ : ٢٤٨.

(٦) نهج البلاغة، لصبحي الصّالح: ٣٠٣؛ فقد جاء فيه: أنّ صاحباً لأميرِ المؤمنين عليه السّلام يُقال له هُمام، كان رجلاً عابداً، فقال له: ياأمير المؤمنين، صِفْ لي المتّقين حتّى كأنّي أنظرُ إليهم؟ فتثاقل عليه السّلام عن جوابه، ثمّ قال: يا هُمام، اتّقِ الله وَأحسِنْ، فـ«إنَّ الله مَعَ الّذين اتّقَوا والّذين هُمْ مُحْسِنُون» فلم يَقنعْ هُمامُ بهذا القول حتّى عَزَم عليه، فحَمَدَ الله وأثنىٰ عليه، وصلّى على النّبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ثمّ قال عليه السّلام:

«أمّا بعدُ فإنّ الله سبحانه وتعالى خَلَق الخَلْق حين خَلَقَهُمْ غنيّاً عن طاعتِهم، آمناً مِنْ مَعصيتِهم، لأنّه لا تَضُرُّه معصيةُ مَنْ عَصاه، ولا تَنفعهُ طاعةُ من أطاعَه، فَقَسَمَ بينهم معايشَهُم، ووضَعَهُم من الدّنيا مواضِعَهُم؛ فَالْمُتَّقُونَ فيها هُمْ أهلُ الفضائِلِ؛ منطقُهم الصّوابُ، وملبسُهُم الاقتصادُ، ومشيهُم التّواضُعُ، غَضُّوا أبصارَهُم عمّا حَرَّمَ الله عليهم، ووَقَفوا أسماعَهم على العِلم ←

ومن رأى نفسه بصورة التّقصير في القراءة كان ذلك سبب قربه، ومن شاهد نفسه بعين الرّضا، فهو محجوب بنفسه.

← النّافع هم، نُزِّلَتْ أنفسُهم منهم في البلاء كالّتي نُزِّلَتْ في الرَّخاء، ولولا الأجَلُ الّذي كَتَبَ اللهُ عليهم؛ لم تستقرَّ أرواحُهُم في أجسادِهِم طرفةَ عينٍ، شَوقاً إلى الثَّوابِ، وخَوفاً من العقاب. عَظُمَ الخالِقُ في أنفسهِم، فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعينِهِم، فَهُم والجنّةُ كمن قد رآها، فهم فيها مُنعَّمونَ، وهم والنّارُ كمن قد رآها، فهم فيها معذَّبُونَ، قلوبُهم محزونةٌ، وشرورُهم مأمونةٌ، وأجسادُهم نحيفةٌ، وحاجاتُهم خفيفةٌ، وأنفسُهم عفيفةٌ. صَبرُوا أيّاماً قصيرةً، أعقبَتْهُم راحةً طويلةً، تجارةٌ مُربحَةٌ يَسَّرَها لهم ربُّهم، أرادَتْهُم الدُّنيا فلم يُريدوها، وَأسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أنفُسَهُم منها، أمّا اللّيلَ فصافّونَ أقدامَهُم، تالِينَ لأجزاءِ القُرآنِ يُرتِّلُونها تَرتيلاً، يُحزِّنُونَ بِهِ أنفُسَهُم، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَواءَ دائِهِم، فإذا مَرُّوا بآيَةٍ فيها تَشويقٌ؛ رَكَنوا إليها طَمَعاً، وتَطلَّعتْ نفوسُهُم إليها شَوْقاً، وظَنُّوا أنَّها نُصْبَ أعينِهِمْ، وإذا مَرُّوا بآيَةٍ فيها تَخويفٌ؛ أصْغَوا إليها مَسامِعَ قُلوبِهِمْ، وظَنُّوا أنّ زفيرَ جهنَّم وشَهيقَها في أُصُولِ آذانِهِم، فَهُم حانُون على أوسَاطِهِم، مُفترِشُون لجباهِهِم وأكُفِّهِم وَرُكَبِهِم، وأطرافِ أقدامِهِم، يَطْلُبُونَ إلى اللهِ تَعالى في فَكاكِ رِقابِهِم، وأمّا النَّهارَ؛ فَحُلَمَاءُ، علماءُ، أبرارٌ، أتقياءُ، قَدْ بَراهُمُ الخَوفُ بَرْيَ القِدَاحِ، يَنْظُرُ إليهِمُ النّاظِرُ فَيَحْسَبُهُم مَرضَى، وَما بالقومِ من مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لقد خُولِطُوا!

ولقد خالَطَهُم أمرٌ عظيمٌ! لا يَرْضَوْنَ مِنْ أعمالِهِمُ القليلَ، ولا يَستكثرُونَ الكثيرَ، فهُم لأنفسِهِم مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أعمالِهِم مُشفِقُونَ، إذا زُكِّيَ أحدٌ منهُم خافَ مِمّا يُقَالُ لَهُ؛ فَيَقُولُ: أنَا أعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْري، وَرَبّي أعْلَمُ بِي منّي بنفسي! اللّهُمَّ لا تُؤاخِذْني بما يَقُولُونَ، واجْعَلني أفْضَلَ مِمّا يَظُنُّونَ، واغْفِر لي ما لا يَعلمُونَ.

فمِن علامةِ أحدِهِم أنَّكَ تَرى لَهُ قُوَّةً في دينٍ، وحَزْماً في لينٍ، وإيماناً في يَقينٍ، وَحِرصَاً في عِلمٍ، وَعِلماً في حِلمٍ، وَقَصْداً في غِنًى، وَخُشُوعاً في عِبَادَةٍ، وتَجَمُّلاً في فاقَةٍ، وصَبراً في شِدَّةٍ، وطَلَباً في حَلالٍ، ونَشاطاً في هُدىً، وتَحرُّجاً عن طَمَعٍ؛ يَعملُ الأعمالَ الصّالِحَةَ وَهُوَ على وَجَلٍ، يُمسي وهَمُّهُ الشُّكرُ، ويُصْبِحُ وهَمُّهُ الذِّكرُ، يَبيتُ حَذِراً، ويُصبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لما حُذِّرَ مِنَ الغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بما أصَابَ مِنَ الفَضْلِ والرَّحمةِ.

إنِ اسْتَصْعَبَتْ عليه نفسُه فيما تكرَه، لم يُعطِها سُؤْلَها فيما تُحِبّ، قُرَّةُ عينِهِ فيما لا يَزول، وزهادتُه فيما لا يَبقى، يمزجُ الحِلمَ بالعِلمِ، والقولَ بالعمل، تَراه قريباً أمَلُهُ، قليلاً زَلَلُهُ، خاشِعاً قلبُه، قانعةً نفسُه، منزوراً أكلُهُ، سَهلاً أمرُه، حريزاً دينُه، ميّتةً شهوتُه، مكظوماً غيضُه، الخيرُ منه مأمولٌ، والشّرُّ منه مأمونٌ، إنْ كان في الغافلينَ كُتِبَ في الذّاكرينَ، وإن كان في الذّاكرينَ لم يُكتَبْ من الغَافلينَ، يَعفو عمّن ظَلَمَه، ويُعطي مَن حَرَمَه، ويَصِلُ من قَطَعَه، بعيداً فُحْشُه، لَيّناً قَولُه، غائِباً ←

فهذه نبذة من وظائف القراءة وأسرارها، وفّقنا الله لتلقّي الأسرار، وألحقنا بعبادهِ الأبرار.

وإذا وصلت إلى هذا المقام فاسجد سجدتَي الشّكر شكراً لله سبحانه على مزيد الإنعام، واحضر إنعامه لديك ببالك، وأياديه عندك في جميع أحوالك، وقل «شكراً شكراً» إلى تمام ما يمكنك من المزيد، فأنت مع ذلك مقصر عمّا يجب عليك من التّحميد، وغاية ما يجب الاعتراف بالتّقصير، والاستغفار من كلّ قليل وكثير.

اللّهم ارزقنا العمل بما كشفت لنا من الأسرار والآيات، وزدنا فيضاً وعِرفاناً يكون لنا سُلّماً إلى نيل تلك الدّرجات، وأوقفنا(١) [على درك](٢) الحق بالتّوفيق، وثبّت أقدامنا على مقامات الصّدق وحقائق التّحقيق، بفضلك وجودك العميم، إنّك أنت الوهّاب الكريم.

←

مُنكرُهُ، حاضِراً معروفُه، مُقبلاً خيرُه، مُدبِراً شرُّه.

في الزَّلازِلِ وقورٌ، وفي المكارِهِ صَبُورٌ، وفي الرَّخاء شكورٌ، لا يَحيفُ على مَن يُبغِض، ولا يأثَم فيمن يُحِبُّ، يَعترِفُ بالحقِّ قبلَ أنْ يُشهَدَ عليهِ، لا يُضيعُ ما استُحفِظَ، ولا يَنسَى ما ذُكِّرَ، ولا يُنابِزُ بالألقابِ، ولا يُضارُّ بالجار، ولا يَشْمَتُ بالمصائبِ، ولا يَدْخُل في الباطِلِ، ولا يَخرُجُ مِنَ الحقِّ، إن صَمَتَ لم يَغُمَّهُ صَمْتُه، وإنْ ضَحِكَ لم يَعلُ صَوْتُه، وإنْ بُغِيَ عليهِ صَبَرَ حتّى يكونَ اللهُ هُوَ الّذي يَنتقِمُ لَهُ.

نفسُه مِنهُ في عَناءٍ، والنَّاسُ مِنهُ في راحَةٍ، أتْعَبَ نفسَهُ لآخرتِهِ، وأراحَ النَّاسَ مِنْ نَفسِهِ، بُعْدُهُ عمَّن تباعَدَ عنهُ زُهدٌ ونَزاهَةٌ، ودُنُوُّهُ ممَن دَنَا مِنهُ لينٌ ورَحْمةٌ، ليسَ تباعُدُهُ بكِبْرٍ وعَظَمةٍ، ولا دُنُوُّهُ بمَكْرٍ وخديعَةٍ».

قال: فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أميرالمؤمنين عليه السّلام: «أمَا واللهِ لَقَدْ كُنتُ أخافُها عليهِ» ثمّ قال: «أهكذا تَصْنَعُ المواعِظُ البالِغَةُ بأهلِها؟»، فقال له قائل: فما بالُكَ يا أميرَالمؤمنين؟ فقال عليه السّلام: «وَيْحَك، إنّ لِكُلِّ أجَلٍ وَقْتاً لا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لا يَتجاوَزُهُ، فَمَهْلاً، لا تَعُدْ لمثلِها، فإنّما نَفَثَ الشّيطانُ على لِسانِك».

(١) «د» «م»: ووفّقنا.

(٢) «د»: لدرك.

الفَصلُ الثَالِثُ

في المنافيات

الفصل الثّالث: في المنافيات

وهي في هذا المقام ما أبطلت الصّلاة، أو نقصت كمالها من جهات قلبيّة. وهي تنقسم إلى «منافيات الكمال»، وإلى «منافيات الصّحة».

وضابط القول[1] : ما ينافي الإقبال بالقلب على الله تعالى من حديث النّفس، والالتفات إلى أمر دنيويّ، بل الفكر في غير متعلّق الصّلاة، وإن كان أُخرويّاً، فإنّه من دقائق مكائد الشّيطان؛ فإنّ المطلوب لله تعالى والموجب للقبول إنّما هو الإقبال على كلّ فعل من أفعالها حال الاشتغال فيه؛ كما نبّه عليه بقوله صلّى الله عليه وآله: (وإنّما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك)[2].

ويدخل في هذا القسم ما عدّه الفقهاء من المكروهات كمدافعة الأخبثين والنّعاس، والتّنخّم، والبصاق، والعبث، وغيرها، فإنّها مشتركة في مضادّة الإقبال، ومنافية للخشوع.

وأمّا منافيات الصّحة؛ فضابطها منافاة الإخلاص، واستكثار الطّاعة، ويدخل في الأوّل: الرّياء[3] بأقسامه، وفي الثّاني: العُجْب. والكلام في كلّ منهما

---

(١) «ح» «د»: الأوّل.

(٢) إحياء علوم الدّين ١: ٢٨٥، المحجّة البيضاء ١: ٣٦٦ بيسير اختلاف.

(٣) قال بعض المحقّقين: اعلم أنّ الرّياء مشتقّ من «الرّؤيا» والسّمعة مشتقّة من «السّماع» وإنّما الرّياء أصله: طلب المنزلة في قلوب النّاس بإراءتهم خصال الخير، إلاّ أنّ الجاه والمنزلة يطلب في القلب بأعمال سوى العبادات ويطلب بالعبادات، واسم الرّياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات ←

مستوفىً، وذكر أقسامهما وأحكامهما يخرج عن وضع الرّسالة، لكنّا نذكر المهمّ.
فاعلم أنّ الوعيد على هاتين الآفتين في الكتاب والسّنّة كثير يخرج عن حدّ

وإظهارها، فحدّ الرّياء هو: إرادة المنزلة بطاعة الله تعالى، فالمرائي هو العابد والمراءى هو النّاس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال الّتي قصد المرائي إظهارها. والرّياء هو قصد إظهار ذلك، والمراءى به كثيرة، ويجمعها خمسة أقسام؛ وهي مجامع مايتزيّن العبد به للنّاس، وهو البدن، والزّيّ، والقول، والعمل، والأتباع، والأشياء الخارجة ولذلك أهل الدّنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة، إلاّ أنّ طلب الجاه وقصد الرّياء بأعمالٍ ليست من جملة الطّاعات أهون من الرّياء بالطّاعات.

والأوّل: الرّياء في الدّين من جهة البدن، وذلك بإظهار النّحول والصفار. ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدّين، وغلبة خوف الآخرة، وليدلّ بالنّحول على قلّة الأكل، وبالصّفار على سهر اللّيل وكثرة الأرق في الدّين، وكذلك يرائي بتشعّث الشّعر ليدلّ به على استغراق الهمّ بالدّين، وعدم التّفرّغ لتسريح الشّعر، ويقرب من هذا خفض الصّوت، وإغارة العينين، وذبول الشّفتين، فهذه مراءاة أهل الدّين في البدن.

وأمّا أهل الدّنيا؛ فيراؤن بإظهار السّمن، وصفاء اللّون، واعتدال القامة، وحُسن الوجه، ونظافة البدن، وقوّة الأعضاء.

وثانيها: الرّياء بالزّيّ والهيئة؛ أمّا الهيئة، فتشعّث شعر الرّأس، وحلق الشّارب، وإطراق الرّأس في المشي، والهدوّ في الحركة، وإبقاء أثر السّجود على الوجه، وغلظ الثّياب، ولبس الصّوف، وتشميرها إلى قريب من نصف السّاق، وتقصير الأكمام، وترك تنضيف الثّوب، وتركه مخرقاً. كلّ ذلك يُرائي به ليظهر من نفسه أنّه يتّبع السّنّة فيه، ومقتد فيه بعباد الله الصّالحين.

وأمّا أهل الدّنيا؛ فمراءاتهم بالثّياب النّفيسة، والمراكب الرّفيعة، وأنواع التّوسّع والتّجمّل.

الثّالث: الرّياء بالقول، ورياء أهل الدّين بالوعظ، والتّذكير والنّطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة؛ إظهاراً لغزارة العلم، ولدلالته على شدّة العناية بأقوال السّلف الصّالحين، وتحريك الشّفتين بالذّكر في محضر النّاس، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة النّاس بالمعاصي، وتضعيف الصّوت في الكلام.

وأمّا أهل الدّنيا؛ فمراءاتهم بالقول بحفظ الأمثال والأشعار، والتّفاصح في العبارات، وحفظ النّحو الغريب للأعراب على أهل الفضل، وإظهار التّودّد إلى النّاس، لاستمالة القلوب.

الرّابع: الرّياء في العمل كمراءاة المصلّي بطول القيام ومدّه، وتطويل الرّكوع والسّجود،

الحصر، قال الله تعالى: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ»(١).

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (إنّ النّار وأهلَها يعجّون من أهل الرّياء) فقيل: يا رسول الله، وكيف تعجّ النّار؟ قال: (من حرّ النّار الّتي يُعذّبون بها)(٢).

وعنه صلّى الله عليه وآله، قال: (المرائي يوم القيامة ينادى بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، ضلّ سعيك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك، التمس الأجر ممّن كنت تعمل له، يا مخادع)(٣)(٤).

وإطراق الرّأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوّ والسّكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصّوم وبالحج وبالصّدقة وبإطعام الطّعام، وبالإخبات بالشّيء عند اللّقاء؛ كإرخاء الجفون، وتنكيس الرّأس والوقار في الكلام، حتّى أن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجه؛ فإذا اطّلع عليه واحد من أهل الدّين رجع إلىٰ الوقار، وإطراق الرّأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة، وقلّة الوقار؛ فإن غاب الرّجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلىٰ خشوعه، ومنهم من يستحيي أن يخالف مشيته في الخلوة لمشيته بمرئى من النّاس، فيكلّف نفسه المشية الحسنة في الخلوة، حتّى اذا رآه النّاس لم يفتقر إلى التّغيير، ويظنّ أنّه تخلّص به من الرّياء، وقد تضاعف به رياؤه، فإنّه صار في خلواته أيضاً مرائياً.

وأمّا أهل الدّنيا؛ فرياءاتهم بالتّبختر والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخُطا، والأخذ بأطراف الذّيل، وادارة العطفين، ليدلّوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزّائرين والمخالطين؛ كالّذي يتكلّف أن يزور عالماً من العلماء، ليقال: إنّ فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العبّاد لذلك، أو ملكاً من الملوك، وأشباهه ليقال: إنّهم يتبرّكون به، وكالّذي يكثر ذكر الشّيوخ، ليرى أنّه لقي شيوخاً كثيراً، واستفاد منهم، فيباهي بشيوخه؛ ومنهم من يريد انتشار الصّيت في البلاد، لتكثر الرِّحلَة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك، لتُقبل شفاعته. ومنهم من يقصد التّوصّل بذلك إلى جمع حُطام، وكسب مال، ولو من الأوقاف، وأموال اليتامى، وغير ذلك. بحار الأنوار ٢: ٢٦٦ـــ٢٦٨.

(١) الماعون: ٤ـــ٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٥.

(٣) «ح»: خادع.

(٤) أمالي الصّدوق: ٣٤٦، بحار الأنوار ٧٢: ٢٩٥، ٣٠٣ وليس فيها: يا مخادع.

وعنه صلّى الله عليه وآله: (إنّ الله تعالى يقول: «أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك، من عمل عملاً فأشرك فيه غيري فنصيبي له، فأنا لا أقبل إلّا ما كان خالصاً لي»)[١].

وعنه صلّى الله عليه وآله: (إنّ الجنّة تكلّمت وقالت: إنّي حرام على كلّ بخيل ومراء)[٢].

وعنه صلّى الله عليه وآله: (إنّ أوّل من يُدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن، ورجل قاتل[٣] في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله عزّ وجلّ للقارىء: ألم أُعلّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: ما عملتَ فيما علمتَ؟ فيقول: يا ربّ، قرأته[٤] في آناء اللّيل وأطراف النّهار، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: إنّما أردت أن يقال فلان قارىء، فقد قيل ذلك. و يؤتى بصاحب المال، فيقول الله تعالى: ألم أُوسّع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: فما عملتَ فيما آتيتك؟ قال[٥]:

---

(١) انظر: بحار الأنوار: ٧٢: ٢٨٢ بيسير اختلاف، ومثله عن عليّ بن سالم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السّلام يقول: (قال الله عزّوجلّ: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمل عمله، لم أقبله إلاّ ما كان لي خالصاً) [الكافي ٢: ٢٩٥]. قال العلاّمة المجلسيّ في بيانه:
«أنا خير شريك» لأنّه سبحانه غنيّ لا يحتاج إلى الشّركة، وإنّما يقبل الشّركة من لم يكن غنيّاً بالذّات، فلا يقبل العمل المخلوط لرفعته وغناه. أو المراد: أنّي محسن إلى الشّركاء؛ أدع إليهم ما كان مشتركاً بيني وبينهم ولا أقبله.
وقيل: إنّ هذا الكلام مبنيّ على التّشبيه، والاستثناء في قوله: «إلاّ ما كان» منقطع. بحار الأنوار ٧٢: ٢٨٨.

(٢) ٧٢: ٣٠٥.

(٣) في المصدر: قُتِل.

(٤) «د» والمصدر: قمتُ به.

(٥) «ب»: فيقول.

كنت أصل الرّحِمَ وأتصدّق، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله سبحانه: بل أردت أن يقال فلان جواد، وقد قيل ذلك. و يؤتى بالّذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: ما فعلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتّى قتلت، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، فيقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جرئ ، شجاع، فقد قيل ذلك، ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أُولئك خلق الله، تسعر بهم نار جهنّم)(١).

وعن الصّادق عليه السّلام: (إيّاك والرّياء؛ فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له)(٢).

وعنه عليه السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»(٣) قال: (الرّجل يعمل شيئاً من الثّواب لا يطلب به وجه الله، إنّما يطلب تزكية النّاس(٤)؛ يشتهي أن يسمع به النّاس، فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه) ثمّ قال: (ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ(٥) شرّاً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له شرّاً)(٦). والأثر في ذلك يطول(٧).

وقال الله تعالى في ذمّ العُجب(٨): «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ»(٩)

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٥.

(٢) الكافي ٢: ٢٩٣، بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٦.

(٣) الكهف: ١١٠.

(٤) «ح» «د»: التفس.

(٥) «ح» «د»: أسرّ.

(٦) الكافي ٢: ٢٩٣، بحار الأنوار ٧٢: ٢٨٢.

(٧) ومن أراد الوقوف على مزيد الأخبار في ذلك؛ فليراجع: بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٥ ــ ٣٠٥.

(٨) قال العلاّمة المجلسيّ في بيان معنى العُجب:

العجب: استعظام العمل الصّالح واستكثاره، والابتهاج له، والإدلال به، وأن يرى نفسه خارجاً

←

ذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال تعالى: «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»(١) وهو أيضاً راجع إلى العُجب بالعمل(٢) على وجه.

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه)(٣).

وقال الصّادق عليه السّلام: (من دخله العجب هلك)(٤).

وعنه عليه السّلام: (العُجب درجات، منها أن يزيّن للعبد سوء عمله، فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنّه يحسن صنعاً)(٥).

وعنه عليه السّلام قال: (أتى عالم عابداً، فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته وأنا منذ كذا وكذا أبكي؟ قال: كيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتّى تجري دموعي، فقال له العالم: فإنّ ضحكك وأنت خائف خير من بكائك وأنت مُدِلّ(٦)، إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء)(٧).

عن حدّ التّقصير. وأمّا السّرور به مع التّواضع له تعالى والشّكر له على التّوفيق لذلك، وطلب الاستزادة منه، فهو حسن ممدوح.

وقال الشّيخ البهائي: لاريب أنّ من عمل أعمالاً صالحة من صيام الأيّام، وقيام اللّيالي، وأمثال ذلك، يحصل لنفسه ابتهاج؛ فإن كان من حيث كونها عطيّة من الله له، ونعمة منه تعالى عليه، وكان مع ذلك خائفاً من نقصها، شفيقاً من زوالها، طالباً من الله الازدياد منها، لم يكن ذلك الابتهاج عجباً، وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها ورأى نفسه خارجاً عن حدّ التّقصير، وصار كأنّه يَمُنُّ على الله سبحانه بسببها، فذلك هو العُجب. بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٦

(٩) التّوبة: ٢٥.

(١) الكهف: ١٠٣.

(٢) «م»: في العمل.

(٣) المحاسن ١: ٣ حديث ٣، الخصال ١: ٤١، عدّة الدّاعي: ٢٢١، بحار الأنوار ٧٢: ٣١٤.

(٤) أمالي الصّدوق: ٣٦٣، بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٩، ٣١٤.

(٥) معاني الأخبار: ٢٤٣، بحار الأنوار ٧٢: ٣١٠، ٣١٧، ج٧٨: ٣٣٦.

(٦) «د»: تدلّ.

(٧) الكافي ٢: ٣١٣، بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٧، ٣١٧.

وعن أحدهما عليهما السّلام قال: (دخل المسجد رجلان أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق، والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل المسجد العابد مدلاً بعبادته يدلّ بها، فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق في التّدم على فسقه ويستغفر الله عزّ وجلّ ممّا صنع من الذّنوب)(١).

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (قال الله تعالى لداود عليه السّلام: يا داود، بشّر المذنبين، وأنذر الصّدّيقين، قال: كيف أُبشّر المذنبين، وأُنذر الصّدّيقين؟ قال: يا داود، بشّر المذنبين أنّي أقبل التّوبة، وأعفو عن الذّنب، وأنذر الصّدّيقين ألّا يعجبوا بأعمالهم، فإنّه ليس عبد يعجب بالحسنات إلّا هلك)(٢).

واعلم أنّ الرّياء على ضربين: رياء محض، ورياء مخلط(٣):

فالمحض: أن يريد بعمله نفع الدّنيا، وهو أعمّ من أن يتوصّل به إلى محرّم أو مباح، أو الحذر من أن ينظر إليه بعين النّقص ولا يعدّ من الخاصّة.

والمخلط(٤): أن يقصد به ذلك مع التّقرّب إلى الله تعالى. وكلاهما مفسد للعمل، بل الأوّل ساقط عن درجة البحث والاعتبار، والثّاني هو الإشراك لله تعالى في العبادة الّتي قد تقدّم أنه يتركها لشريكه. وهذا هو الشّرك الخفيّ في هذه الأُمّة الّذي أشار إليه النّبيّ صلّى الله عليه وآله بأنّه في أُمّته فاش(٥).

ثم المقصود هنا(٦) ليس هو البحث عن الفعل الّذي يقع ابتداءاً رياءاً، لأنّ ذلك باطل في نفسه ولا يعرض لقلوب العارفين، وإنّما الكلام هنا فيما يبتدىء

---

(١) الكافي ٢: ٣١٤، علل الشّرائع ٢: ٤٣، بحار الأنوار ٧٢: ٣١١، ٣١٦.

(٢) الكافي ٢: ٣١٤، عدّة الدّاعي: ٢٢٢، بحار الأنوار ٧٢: ٣١٣ وفي بعضها: (فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلاّ هلك).

(٣،٤) «ح»: مختلط.

(٥) انظر: بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٥ــ٣٠٥ فإنّ فيه من الأخبار ما يدلّ على هذا المعنىٰ.

(٦) «د»: ها هنا، «م»: هناك.

الإنسان به من العبادة خالصاً لله تعالى لا يريد به غيره، ثمّ يعرض له ما ينافي الإخلاص على وجه الشّوب[١] اللّطيف الّذي ينبغي التّنبيه عليه في مثل هذا المقام. وهو يأتي على وجوه؛ بعضها جليّ، وبعضها خفيّ.

أحدها: أن يعقد الصّلاة مثلاً على الإخلاص المحض[٢]، والطّاعة، والإقبال على الله تعالى بها، وهو خال من نظر النّاس إليه، فيدخل عليه داخل أو ينظر إليه ناظر، فيقول له الشّيطان: زد صلاتك حُسناً حتّى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصّلاح ولا يزدريك ولا يغتابك، فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته. وهذا هو الرّياء الظّاهر الّذي لا يخفى على المبتدئين[٣] من المريدين، ولكنّه في الجملة من شوائب القرب، ومنافي الإخلاص.

وثانيها: أن يكون قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع[٤] الشّيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمرّ في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير، فيقول[٥]: أنت متبوع، ومقتدى بك، ومنظور إليك، وما تفعله يُؤثَر عنك، ويتأسّى بك غيرُك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك، فعساه أن يُقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة، فتكون شريك من اقتدى بك، وهلمّ جرّاً، للحديث المشهور: (إنّ مَن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة)[٦].

---

(١) الشَّوْب: الخَلْط: يُقال: شابَهُ شَوْباً، أي: خَلَطَهُ؛ مثل: شَوْب الماء باللّبن. مجمع البحرين ١: ٥٥٧ مادّة (شوب).

(٢) المَحْض: الخالص الّذي لم يخالطه شيء. مجمع البحرين ٢: ١٧٥ مادّة (محض).

(٣) «ب»: المبتدين.

(٤) «ح»: يتبع.

(٥) «م» «ب»: ويقول.

(٦) الكافي ٥: ٩ حديث ١، بحار الأنوار ٧١: ٢٥٨.

وهذه المكيدة أعظم من الأُولى وأدقّ، وقد ينخدع بها من لا ينخدع بالأُولى، وهو أيضاً عين الرّياء، ومبطل الإخلاص[١] فإنّه إن[٢] كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضي لغيره تركه، فَلِمَ يرتضي لنفسه ذلك في الخلوة؟ ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزّ عليه من نفسه! فهذا عين التّلبيس، بل المقتدى به هو الّذي استقام في نفسه، واستنار قلبه، فانتشر نوره إلى غيره، فيكون له الثّواب عليه.

وأمّا فعل الأوّل؛ فمحض النّفاق والتّلبيس، فيطالب يوم القيامة بتلبيسه، ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متّصفاً به، وإن أُثيب المقتدي به.

وثالثها ــ وهو أدقّ ممّا قبله ــ : أن يتنبّه[٣] العبد لذلك، وأنّه مكيدة من الشّيطان، ويعلم أنّ مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرّياء، ويعلم أنّ الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربّه أن يخشع لمشاهدة خلقه تخشّعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة، ويحسّن صلاته على الوجه الّذي يرتضيها في الملأ، ويصلّي أيضاً في الملأ كذلك للعلّة المذكورة.

وهذا أيضاً من الرّياء الغامض، لأنّه حسّن صلاته في الخلوة ليحسن[٤] في الملأ؛ فلا يكون قد فرّق بينهما بالتّفاوت في الخلوة والملأ إلى الخلق، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكان نفس صاحب هذه الخطرة[٥] ليست تسمح بإساءة الصّلاة بين النّاس، ثمّ يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظنّ بأنّ ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلاء والملأ.

---

(١) «م»: للإخلاص.

(٢) «ح»: إذا.

(٣) «ح»: ينتبه، «م»: يُنبّه.

(٤) «د»: لتحسن صلاتُه.

(٥) يريد بها: ما يقع في الخاطر.

وهيهات، بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات والبهائم في الخلاء والملأ جميعاً.

وهذا شخص مشغول الهمّ بالخلق في الخلاء والملأ جميعاً. وهذا من المكائد الخفيّة، وإلى هذا المعنى الإشارة في الحديث النّبويّ: (لا يكمل إيمان العبد حتّى يكون النّاس عنده بمنزلة الأ باعر)(١) فتأمّل.

ورابعها ــ وهو أدقّ وأخفى ــ: أن ينظر إليه النّاس وهو في صلاته، فيعجز الشّيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم، فإنّه قد عرف أنّه لا يصغي لذلك، فيقول له الشّيطان: تفكّر في عظمة الله وجلاله، ومن أنت واقف بين يديه، واستح أن ينظر الله إلى قلبك وأنت غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه، وتجتمع(٢) جوارحه، ويظنّ أنّ ذلك عين الإخلاص، وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلال الله وعظمته، لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة، ولكان لا يختصّ حضورها بحالة حضور غيره.

وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر ممّا يألفه في الخلوه كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السّبب في حضور الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً، فما دام يفرّق في أحواله بين مشاهدة الإنسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص، مدلّس الباطن بالشّرك الخفيّ من الرّياء.

وهذا الشّرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النّملة السّوداء، في اللّيلة الظّلماء، على الصّخرة الصّمّاء. كما ورد به الخبر(٣).

---

(١) عدّة الدّاعي: ٢٠٤ واللّفظ فيه: (يا أبا ذر، لا يفقه الرّجل كلّ الفقه، حتّى يرى النّاس أمثال الأباعر؛ فلا يحفل بوجودهم، ولا يغيّره ذلك، كما لا يغيّره وجود بعير عنده).

(٢) «ب»: تجمع.

(٣) انظر: الخصال ١: ٦٧ بحار الأنوار ٧٢: ٩٣، ٩٦.

ولا[١] يسلم من الشّيطان إلّا من دقّ[٢] نظره ، وسَعُدَ بتوفيق الله تعالى وهدايته ، وإلّا فالشّيطان ملازم للمتشمّرين لعبادة الله تعالى ، لا يغفل عنهم لحظة حتّى يحملهم على المهالك في كلّ حركة من الحركات ، حتّى في كحل العين ، وقصّ الشّارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثّياب الفاخرة[٣] ؛ فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة ، لكن للنّفس[٤] فيها حظّ خفيّ ، لارتباط نظر الخلق بها ، فيدخل الشّيطان فيها عليه من[٥] المداخل إن لم يتيقّظ .

ولهذا قيل : ركعتان من عالم ، أفضل من عبادة سنة من جاهل[٦] .

وأُريد به : العالم البصير بدقائق آفات العبادة ، حتّى يخلص عنها ، لا مطلق العالم ، فإنّ مداخل الشّيطان على كثير[٧] من العلماء أعظم[٨] من مداخله على الجهلاء .

وخامسها : أن يكمل العبادة على الإخلاص المحض والنّيّة الصّالحة ، لكن عرض له بعد الفراغ منها حبّ إظهارها ، ليحصل له بعض الأغراض المحقّقة للرّياء خديعة من الشّيطان له أنّه قد أكمل العبادة الخالصة ، وقد كتبها الله في ديوان المخلصين ، فلا يقدح فيها ما يتجدّد[٩] ، وإنّما ينضمّ إلى ما حصله بها من الخير

---

(١) «ب» : فلا .

(٢) يقال : دَقَّ الأمْرُ دِقَّةً : إذا غمض وخفي معناه ، ولا يكاد يفهمه الأذكياء . مجمع البحرين ١ : ٤٦ مادّة (دقق) .

(٣) ليست في «ب» «م» .

(٤) «ح» : في النّفس .

(٥) ليست في «ب» «م» .

(٦) انظر : نهج الفصاحة : ٣٥٠ فإنّ فيه ما يدلّ على هذا المعنى .

(٧) «م» : الكثير .

(٨) «ب» : أكثر .

(٩) «م» : تجدّد .

الآجل خير آخر عاجل، فيحدث به ويظهره لذلك.

فهذا أيضاً مفسد للعمل وإن سبق، كما يفسده العجب المتأخّر، ويدخل في زمرة الّذين قال الله تعالى عنهم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»(١).

وقد روي أنّ رجلاً قال للنّبيّ صلّى الله عليه وآله: صمتُ الدّهر يا رسول الله؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: (ما صُمتَ ولا أفطرتَ)(٢).

وروي عن ابن مسعود أنّه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة البقرة؟ قال: ذلك حظّه، بل لو كنت باقياً على إخلاصك فيه، فقد نقصت منه تسعة وستّين جزءاً من سبعين. على ما روي عنهم عليهم السّلام: (إنّ فضل عمل السّرّ على عمل الجهر سبعون ضعفاً)(٣).

وعن الصّادق عليه السّلام: (من عمل حسنة سرّاً كُتبت له سرّاً، فإذا أقرّ بها مُحيت وكُتبت جهراً، فإذا أقرّ بها ثانية محيت وكتبت رياءاً)(٤)(٥).

فيا لها من كلمة ما أشأمها، ورزيّة ما أعظمها، حيث نقص بها حظّك، وضاع(٦) كدحك، وليتك سلمت من تبعتها؛ فإنّ المرائي لا يسلم ـــ كما قد

---

(١) الكهف: ١٠٣.

(٢) لم أعثر عليه في مكان.

(٣) عدّة الدّاعي: ٢٢٠.

(٤) عدّة الدّاعي: ٢٢١، بحار الأنوار ٧٢: ٣٢٤.

(٥) قال في «المرآة» في كلام له: إنّ رعاية العمل وحفظه عند الشّروع وبعده إلى الفراغ وبعد الفراغ إلى الخروج من الدّنيا حتّى يخلص عن الشّوائب الموجبة لنقصه أو فساده، أشدّ من العمل نفسه؛ كما عن أبي جعفر [الباقر] عليه السّلام أنّه قال: (الإبقاء على العمل أشدّ من العمل) قال: وما الإبقاء على العمل؟ قال: (يصل الرّجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له، فيكتب له سرّاً، ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له علانية، ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له رياءاً، ومن عرف معنى النيّة وخلوصها علم أنّ إخلاص النّيّة أشدّ من جميع الأعمال. هامش عدّة الدّاعي: ٢٢١ نقلاً عن المرآة.

(٦) «د»: زيادة: بها.

عرفت ـــ من وعيده.

وهذا كلّه مع عدم تعلّق غرض صحيح في الآخرة بإذاعته، أمّا معه ـــ كما لو أراد بذلك تنشيط السّامع وترغيبه في فعل الخير مع وثوقه بنفسه ـــ فلا حرج فيه إذا لم يمكن تنشيطه بدونه، وإلّا كان أولى.

وقد روى محمّد بن مسلم[١]، عن الباقر عليه السّلام، قال: (لا بأس أن تحدّث أخاك إذا رجوت أن تنفعه وتحثّه، وإذا سألك هل قمت اللّيلة أو صمت، فحدّثه بذلك إن كنت فعلته، فقل: قد رزق الله ذلك، ولا تقل لا، فإنّ ذلك كذب)[٢].

ومن هنا جاء أفضليّة الصّدقة جهراً ليتأسّى به، والإجهار بصلاة اللّيل زيادة على غيرها لينبّه[٣] أهله وجيرانه فيتأسّوا به، لكنّ ذلك كلّه موضع الخطر، فيجب الاحتراز والتّيقّظ بمراعاة القلب، وكما يكون الإظهار مظنّة الرّياء ومخطرته، كذلك الإخفاء؛ فإنّ فيه أيضاً للشّيطان مداخل.

منها: أن يأمرك[٤] بترك العمل خوفاً من أن تكون[٥] مرائياً به. وهذا من جملة خدائعه، وفي ترك العمل كذلك[٦] تحصيل لغرضه، لأنّ غرضه الأقصى ترك العمل، وإنّما يعدل بك إلى قصد الرّياء وغيره عند عجزه عن تثبيطك عن العمل،

---

(١) محمّد بن مسلم بن رباح الأوقص الطّحّان، مولى ثقيف الأعور، وجه أصحابنا بالكوفة، فقيه، ورع، صحب أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السّلام، وروى عنهما، وكان من أوثق النّاس؛ قال الصّادق عليه السّلام: (أحبّ إليّ أحياءً وأمواتاً أربعة:... منهم محمّد بن مسلم) وهو من أصحاب الإجماع. مات سنة ١٥٠هـ. رجال النجاشيّ: ٣٢٤، رجال الطّوسيّ: ١٣٥، رجال الكشّيّ: ١٦١.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٣٢٢.

(٣) «ب»: لتنبيه.

(٤) «د»: يأمره.

(٥) «د»: يكون.

(٦) «م»: لذلك.

وتزهيدك فيه، فإذا تركته فقد[١] حصّلت غرضه، ومثالك في ذلك مثال من سلّم إليه مولاه حنطة فيها تراب، وقال: خلّصها من التّراب ونقّها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم يخلص خلاصاً صافياً، فيترك العمل من أصله.

وهذا تمام الغرض لإبليس اللّعين، وغاية القصد، فقد حصّلت أُمنيته، وأرحته من التّعب بك في إفساد العمل. وإنّما سبيلك أن تجتهد في تخليص عملك بالأدوية النّافعة، وتحصيل مراد مولاك.

ومنها: أن يأمره بترك العمل أيضاً لا لذلك، بل خوفاً على النّاس أن يقولوا: إنّه مراء، فيعصون الله به. وهذا أيضاً مع ما قبله رياء خفيّ، من مكائد الشّيطان، لأنّ ترك العمل خوفاً من قولهم: إنّه مراء، عين الرّياء، ولولا حبّه لمحمدتهم[٢]، وخوفه من ذمّهم، فماله ولقولهم، قالوا: إنّه مراء، أو قالوا: إنّه مخلص ؟!.

وأيّ فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال: إنّه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال: إنّه غافل مقصّر؟ بل ترك العمل أشدّ من ذلك، وفيه مع ذلك إساءة الظّنّ بالمسلمين، وما كان من حقّه أن يظنّ بهم ذلك.

ثمّ كيف تطمع أن تتخلّص من الشّيطان بترك العمل وقد أطعته فيه، فإنّه لا يخليك أيضاً، بل يقول لك: الآن يقول النّاس: إنّك تركت العمل ليقال إنّك مخلص لا تشتهي الشّهرة. إلى غير ذلك من اللّعب بك.

وإنّما خلاصك من ذلك كلّه أن تلزم قلبك معرفة آفات الرّياء وضرره، لتلزم كراهته، وتستمرّ مع ذلك على العمل ولا تبالي، وتلزم قلبك الحياء من الله تعالى؛ إذ دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمد الله تعالى حمد المخلوقين وهو مطّلع على قلبك، ولو

---

(١) «ح»: فإذنْ.

(٢) «م»: لمدحهم.

اطّلع الخلق على قلبك وأنّك تريد حمدهم لَمَقتُوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياءاً من ربّك وعقوبة لنفسك فافعل.

ومنها : أن يقول له: اترك العمل لئلاّ يظنّ النّاس بك خيراً وتشتهر به، وأحبّ العباد إلى الله: الأتقياء، الأخفياء الّذين إذا شهدوا [١] لم يُعرفوا، فإذا عُرفت بين النّاس بالعبادة لم يكن لك حظّ من هذا الوصف.

وهذه[٢] أيضاً من مكائده، وما عليك إذا أخلصت العمل لله تعالى أن تُعرف به أو تجهل؟ وإنّما عليك مراعاة قلبك، وإصلاح سرّك[٣]، وكيف تخفى على النّاس إذا كُنتَ صالحاً، وهو تعالى يقول: (عليك إخفاؤه، وعليّ إظهاره) ويقول: (من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته)[٤].

وإيّاك أن يغرّك اللّعين عند ذلك، ويقول: إذا كنت لا تترك العمل لذلك فاخف العمل، فإنّ الله تعالى سيظهره عليك، وأمّا إذا أظهرته فيمكن أن تقع في الرّياء.

وهذا التّلبيس عين الرّياء، لأنّ إخفاءك له كي يظهر عليك بين النّاس هو بعينه العمل لأجل النّاس، وما عليك إذا كان مرضياً لله تعالى أن يظهر أو يخفى لو لا نظرك إلى رضا النّاس؟

إذا تقرّر ذلك؛ فإيّاك أن تحملك دقائق الإخلاص وصعوبة الخلاص على الكسل والقعود عن الطّاعات نظراً إلى ما تجده[٥] في نفسك من السّرور بالطّاعة[٦]،

---

(١) أي: إذا حضروا.

(٢) «م»: وهذا.

(٣) «م»: أمرك.

(٤) نهج البلاغة، لصبحي الصّالح: ٥٥١ حديث ٤٢٣، عدّة الدّاعي: ٢١٦. سفينة البحار ١: ٦١٣؛ كما روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (من أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين النّاس).

(٥) «ب» «م»: يحدث.

(٦) «م»: بالطّاعات.

وزيادة الابتهاج باطّلاع النّاس عليك بفعل العبادة، بل اجتهد في قلع[١] مادّة الفساد، ومجاري الشّيطان عنك، واعمل.

وأمّا سرورك بالطّاعة؛ فإنّ منه محموداً، ومنه مذموماً.

فالمحمود: أن يكون من قصدك وداعيتك[٢] إخفاء الطّاعة والإخلاص لله سبحانه، ولست مستكثراً لعملك، وإنّما سرورك في أن وفّقك للعمل، وأخرجك من ربقة[٣] البطّالين والغافلين، ولم تبلغ بالسّرور حدّ العُجب ـ الآتي ذكره ـ وإذا حصل اطّلاع النّاس عليه فلم يحصل من قِبَلِكَ، وإنّما سُررت باطّلاعهم نظراً إلى أنّ الله سبحانه هو الّذي أطلعهم عليه، وأظهر لهم الجميل، تكرّماً عليك وتفضّلاً، ونحو ذلك.

والمذموم: أن تفرح به استكثاراً وركوناً إليه، وبظهور النّاس عليه لقيام منزلتك عندهم ليمدحوك ويقوموا بقضاء حوائجك، ويقابلوك[٤] بالإكرام، ونحو ذلك، فإنّه رياء محض، ومبطل[٥] للعمل، وأصله حبّ الدّنيا، ونسيان الآخرة، وقلّة التّفكّر فيما عند الله.

نسأل[٦] الله من فضله أن لا يعاملنا بعدله، بل يسامحنا بعفوه، ويستر زلّاتِنا بصَفحِه، إنّه جواد كريم.

وأمّا العُجب؛ فهو استعظام العمل، والابتهاج به، والإدلال به، وأن يرى

---

(١) «ب»: قطع.

(٢) «ب»: دواعيك، «ح»: داعيك.

(٣) الرِّبْقَة: حبل مستطيل فيه عُرى تربط فيه صغار البُهْم، توضع في أعناقها أو يدها تمسكها. فاستُعير ذلك للإسلام؛ بأن جعل الإسلام الجامع للمسلمين بمنزلة ذلك الحبل، ونصيب ما استحقّ كلّ مسلمٍ بمنزلة عروةٍ من تلك العُرى. مجمع البحرين ١: ١٣٧ مادّة (ربق).

(٤) «د»: يعاملوك.

(٥) «ح» «د» «م»: محبط.

(٦) «ب»: فنسأل.

العامل نفسه خارجة بسببه عن حدّ التّقصير.

وهذا من أعظم المهلكات، بل هو النّاقل للعمل من كفّة الحسنات إلى كفّة السّيّئات، ومن رفيع الدّرجات إلى أسفل الدّركات ـ كما تقدّم في الأخبار.

ولذلك قال عيسى عليه السّلام: (يا معاشر الحواريّين[١]؛ كم من سراج قد أطفأته الرّياح، وكم من عابد أفسده العُجب)[٢].

وروى سعيد بن أبي خلف[٣] عن الصّادق عليه السّلام قال: (عليك بالجدّ، ولا تخرجنّ نفسك من حدّ التّقصير في عبادة الله وطاعته، فإنّ الله تعالى لا

---

(١) الحواريّون: هم صفوة الأنبياء الّذين خلصوا وأخلصوا في التّصديق بهم ونصرتهم، وقيل: سمّوا حواريّين، لأنّهم كانوا قصّارين يحوّرون الثّياب، أي: يقصّرونها وينقّونها من الأوساخ ويبيّضونها، من الحور، وهو: البياض الخالص. وعن بعض الأعلام أنّهم لم يكونوا قصّارين على الحقيقة، وإنّما أُطلق الاسم عليهم رمزاً إلى أنّهم كانوا ينقّون نفوس الخلائق من الأوساخ الذّميمة، والكدورات، ويرقّونها إلى عالم النّور من عالم الظّلمات.

وعن الرّضا عليه السّلام، وقد سُئل: لم سُمّي الحواريّون الحواريّين؟ قال: (أمّا عند النّاس؛ فإنّهم سُمّوا الحواريّين، لأنّهم كانوا يقصّرون الثّياب من الوسخ بالغسل، وأمّا عندنا؛ فإنّهم كانوا مخلصين في أنفسهم، ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذّنوب).

قال بعض الأفاضل: أصل هذا الاسم لأصحاب عيسى عليه السّلام المختصّين به؛ وكانوا اثني عشر؛ منهم: ألوقا، ومرقالونين، ويوحنّا، ومتّا، ومنهم رسل عيسى عليه السّلام إلى أهل الطّائف. مجمع البحرين ١: ٥٩٥ مادّة (حور)، علل الشّرائع ١: ٧٦.

(٢) عدّة الدّاعي: ٢٢٣، بحار الأنوار ٧٢: ٣٢٢.

(٣) كذا في النّسخ، والصّحيح ـ كما في كتب الرّجال، ومصدر الحديث ـ: سعد بن أبي خلف؛ يُعرف بـ«الزّام»؛ مولى بني زهرة بن كلاب، كوفيّ ثقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السّلام، وله كتاب يرويه عنه جماعة. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله تارة من أصحاب الصّادق عليه السّلام، بعنوان: سعد بن أبي خلف الزّهريّ مولاهم كوفيّ، وأُخرى من أصحاب الكاظم عليه السّلام، بعنوان: سعد بن أبي خلف الزّام، ثقة. وقال في الفهرست: سعد بن أبي خلف الزّام، صاحب أبي عبد الله عليه السّلام، له أصل. رجال النّجاشيّ: ١٧٨، رجال الطّوسيّ: ٢٠٣، ٣٥١، الفهرست: ٧٦، تنقيح المقال: ٢: ١١.

يعبد حقّ عبادته)[١] .

ومنشأ العُجب : الغفلة عن عيوب الأعمال وآفات العبادات ، وعن نعم الله تعالى على العالمين من الخلق والأقدار والألطاف والتّسخير وغير ذلك .

فانظر إلى الأقرب إليك في هذا المقام ، وهو الصّلاة الّتي هي عمود الدّين ، وأوّل ما ينظر فيه من أعمال ابن[٢] آدم ، فإن ردّت ردّ سائر عمله ، وتأمّل في حدودها الّتي قد حكيناها مستندة[٣] إلى النّصوص الصّحيحة ؛ فلا يكاد تسلم لك صلاة واحدة كاملة تثق من نفسك بقبول الله إيّاها ، وهلمّ جرّاً إلى غيرها من العبادات ، فلكلّ واحد وظائف وحدود لا تبلغها أعمالنا ، ولا نقوم بها لغفلتنا .

وقد قال عليّ عليه السّلام : (اعْلَمُوا عِبَادَ الله ِ أنَّ المُؤمِنَ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسي إلّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ[٤] عِنْدَهُ ، فَلاَ يَزَالُ زَارِيَاً[٥] عَلَيْها وَمُسْتَزِيداً لَها ، فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ ، وَالمَاضِينَ أمَامَكُم قَوَّضُوا[٦] مِنَ الدُّنْيا تَقويضَ الرَّاحِلِ ، وطَوَوْهَا طَيَّ المَنازِلْ)[٧] .

فكيف يعجب الإنسان بعمله ، أو يعدّه قائماً بحقوق العبوديّة ووظائف الخدمة ، لولا استيلاء الغفلة ؟! نعم ، لا يقدح نظر المؤمن إلى نفسه ، وسروره بما[٨]

---

(١) الكافي ١ : ٧٢ حديث ١، عدّة الدّاعي : ٢٢٤، الوسائل ١ : ٧١ الباب ٢٢ من أبواب مقدّمة العبادات، حديث ١، وفيه وفي الكافي : عن أبي الحسن موسى عليه السّلام.

(٢) «م» : بني.

(٣) «ب» : مسندة.

(٤) الظَّنُون : الضّعيف والقليل الحيلة.

(٥) أي : عائباً.

(٦) التّقْويض : نزع أعمدة الخيمة و أطنابها، والمراد أنّهم ذهبوا بمساكنهم وطووها مدّة الحياة ؛ كما يطوي المسافر منازل سفره، أي : مراحله ومسافاته. نهج البلاغة (فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة) : ٦٤٠.

(٧) نهج البلاغة، لصبحي الصّالح : ٢٥١.

(٨) «د» : ممّا.

يفعله من العبادة مع حمد الله تعالى على توفيقه لها ، وطلب الاستزادة من فضله ؛ فقد قال أمير المؤمنين عليه السّلام : (من سرّته[١] حسنة وساءته سيئة ، فهو مؤمن)[٢] .

وقد قال عليه السّلام : (ليس منّا من لم يحاسب نفسه كلّ يوم ؛ فإن عمل خيراً حمد الله واستزاده ، وإن عمل شرّاً استغفر الله)[٣] .

فهذا ما اقتضى الحال ذكره من المنافيات ملخّصاً ، ليوافق الغرض ؛ فإنّ ذكره هنا بالعَرَض ، والله الموفّق .

---

(١) السّرور بالحسنة لا يستلزم العجب ؛ فإنّه يمكن أن يكون عند نفسه مقصّراً في الطّاعة ، لكن يسرّ بأن لم يتركها رأساً ، وكان هذا أولى مراتب الإيمان ، مع أنّ السّرور الواقعيّ بالحسنة يستلزم السّعي في الإتيان بكلّ حسنة ، والمساءة الواقعيّة بالسّيئة يستلزم التّنفّر عن كلّ سيئة ، والاهتمام بتركها ، وهذان من كمال الإيمان. هامش عدّة الدّاعي : ٢٢٤ عن المرآة.

(٢) عدّة الدّاعي : ٢٢٤.

(٣) الاختصاص : ٢٤٣، عدّة الدّاعي : ٢٢٤، بحار الأنوار ٧٠ : ٧٢ وج٧٨ : ٣١١.

الخَاتِمَة

الخَاتِمَة

وأمّا الخاتمة؛ ففيها بحثان:

الأوّل: في جبر الخلل الواقع في الصّلاة، بمعنى بيان الدّواء النّافع[1] لهذه المنافيات.

اعلم أنّ الخلل إن كان من قبيل منافي الإقبال بالقلب على الصّلاة بسبب الأفكار الخارجة عنها فدواؤه تذكّر[2] ما هو فيه، ومن يناجيه، واستشعار الأخطار العظيمة الّلازمة من الغفلة، وعدم قبول العمل مع شدّة الحاجة إليه من يومه هذا إلى الأبد؛ فإنّ التّوفيق الواقع من الجناب الإلهي للمطيع فائض في الدّارين، والحاجة إليه حاصلة في الحالين سيّما يوم الجزاء الّذي يضيق عن وصفه الحال، ولا يحيط بتقريره[3] العقل ولا الخيال، ولا يطيق حمل أهواله[4] الجبال، وليس فيه معين مع رحمة الله وكرمه إلّا القيام بالأعمال الصّالحة، والطّاعات المقبولة الرّابحة؛ فإنّها وسيلة إلى الأنوار، في تلك الظّلمة، والنّجاة من تلك الشّدّة، والجواز على عقبة السّاهرة[5]. ولا تكتسب[6] الأعمال الصّالحة، [والطّاعات المقبولة][7] إلّا في هذه الدّار الزّائلة، وفي

---

(١) «م»: الدّافع.

(٢) «ب»: بذكر.

(٣) «ح»: بتقديره.

(٤) «ح» «د» «م»: أحواله.

(٥) السّاهِرَة: أرض القيامة. مجمع البحرين ١: ٤٤٠ مادّة (سهر).

(٦) «ب»: تكتب.

(٧) ليست في «ب»: «م».

هذه المدّة القصيرة الّتي أكثرها قد مضى على الغفلة ، ويكاد يلحق باقيها بماضيها إن لم يستيقظ الغافل ويستدرك ما فرّط ، وليس في تلك الدّار إلّا الجنّة و[١] النّار، والجنّة قد أُعدّت للمتّقين ، كما أنّ النّار أُعدّت للفاسقين.

و بالجملة : فالخطر عظيم ، والأمر جسيم ، والغفلة شاملة ، ونحن مع ذلك لا نشعر ، وقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله : (يمضي على الرّجل ستّون سنة أو سبعون سنة ما قَبِلَ الله منه صلاة واحدة)[٢].

وقال الصّادق عليه السّلام لحمّاد بن عيسى[٣] ـ الّذي كان يحفظ في فقه الصّلاة كتاب حَريز[٤] ، ودَعا له الصّادق عليه السّلام بأن يحجّ خمسين حجّة ، وأن يكثّر الله ماله وولده ، فأُجيب[٥] له في جميع ذلك ـ حين صلّى عنده ركعتين : «ما أقبحَ بالرّجل منكم يمضي[٦] عليه ستّون سنة ، أو سبعون سنة ، لا يحسن أن يقيم

---

(١) «ح» «ب» : أو.

(٢) انظر: الوسائل ٣: ١٥ الباب ٦ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، الحديث ٢، وغيره، فإنّ في الباب ما يدلّ على هذا المعنى.

(٣) هو: حمّاد بن عيسى : أبومحمّد الجُهَنيّ ؛ كوفيّ، ثقة، سكن البصرة. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله من أصحاب الإمامين الصّادق والكاظم عليهما السّلام، ووثّقه في الفهرست. وقال النّجاشيّ : كان ثقة في حديثه، صَدوقاً. مات غريقاً بوادي قناة؛ وهو وادٍ يسيل من الشّجرة إلى المدينة سنة ٢٠٩هـ، وقيل: ٢٠٨هـ، وله نيف وتسعون سنة.

رجال الطّوسيّ : ١٧٤، ٣٦٦، رجال النّجاشيّ : ١٤٢، الفهرست: ٦١.

(٤) هو: حَريز بن عبدالله السّجستانيّ : أبومحمّد الأزديّ، أكثر السّفر والتّجارة إلى سجستان، فعُرف بها؛ قال النّجاشيّ : قيل: روى عن أبي عبدالله عليه السّلام، وقال يونس: لم يسمع من أبي عبدالله إلّا حديثين، وقيل: روى عن أبي الحسن موسى، ولم يثبت ذاك ، وكان ممّن شهر السّيف في قتال الخوارج في سجستان في حياة أبي عبدالله عليه السّلام. عدّه الشّيخ الطّوسيّ في رجاله من أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام، ووثّقه في الفهرست. رجال النّجاشيّ : ١٤٤، رجال الطّوسيّ : ١٨١، الفهرست: ٦٢، تنقيح المقال ١: ٢٦١.

(٥) «ب» : وأُجيب.

(٦) في الوسائل: أن يأتي

صلاة واحدة بحدودها)[١].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: (كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه)[٢] و (كم من صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع والعطش)[٣].

إلى غير ذلك من الآثار الدالّة على صعوبة الأمر، ودقّة الخطر.

فإحضار هذا وشبهه وما تقدّم في المقدّمة من الأثر[٤] ممّا يعين على حضور القلب، مضافاً إلى ما سلف من الدّواء المعين على ذلك في الفصل الثّالث.

وإن كان المنافي من قبيل المفسدات؛ فالعلاج النّافع فيما ينافي الإخلاص هو التّفكّر في مضرّة الرّياء، وما يفوت بسببه من صلاح القلب، وما يحرم عنده في الحال من التّوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرّض له من العقاب العظيم، والمقت الشّديد، والخزي الظّاهر، حيث ينادي ربّه[٥] على رؤوس الأشهاد والعباد: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي، أمَا أستحييت[٦]؛ إذ اشتريت بطاعة الله تعالى عَرَض[٧] الدّنيا، راقبت قلوب العباد، واستهزءت بطاعة الله تعالى، وتحبّبت إلى العباد بالتّبغّض إلى الله تعالى، وتزيّنت لهم بالشّين[٨] عند الله تعالى، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله تعالى، وتحمّدت إليهم بالتّذمّم[٩] عند الله تعالى، وطلبت

(١) الفقيه ١: ٣٠٠ حديث ٩١٥، التهذيب ٢: ٨١ حديث ٣٠١، الوسائل ٤: ٦٧٣ الباب ١ من أبواب أفعال الصّلاة، الحديث ١.

(٢) مجمع البحرين ٢: ٤٧٨ مادّة (قرأ)، بحار الأنوار ٩٢: ١٨٤ باختلاف يسير في اللّفظ.

(٣) انظر: الوسائل ١: ٥٣ الباب ١٢ من أبواب مقدّمات العبادات، الحديث ٨، ٩.

(٤) «م»: الآثار.

(٥) ليست في «د» «م».

(٦) «ب»: استحيت.

(٧) «د» «ب»: غَرَض.

(٨) الشَّيْن: خلاف الزَّيْن، يُقال: شانَهُ يُشينُه شَيْناً: عابَهُ. مجمع البحرين ١: ٥٧٣ مادّة (شين).

(٩) «ب»: بالذّم.

رضاهم بالتّعرّض لسخط الله تعالى ، أمَا كان أحد أهون عليك من الله تعالى ؟!

فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي ، وقابل ما يحصل له من العباد[١] والتّزيّن لهم في الدّنيا بما يفوته من الآخرة ، وبما يحيط عليه من ثواب الأعمال ، مع أنّ العمل الواحد ربّما كان يترجّح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا أُفسد[٢] بالرّياء حوّل إلى كفّة السّيئات ، فيترجّح[٣] به بعد أن كان مرجوحاً ، و يهوي إلى النّار.

فلو لم يكن في الرّياء إلّا إحباط عبادة واحدة ، لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره ، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علوّ الرّتبة[٤] عند الله تعالى في زمرة النّبيّين والصّدّيقين ، وقد حطّ عنهم بسبب الرّياء ، وردّ إلى صفّ النّعال من مراتب الأ ولياء ، إن لم يستوجب النّار ، والخزي ، والطّرد من الملك الجبّار.

هذا مع ما يتعرّض له في الدّنيا من تشتّت[٥] الهمّ ، بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنّ «رضا النّاس غايةٌ لا تُدْرَك» ، فكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق ،ورضا بعضهم في سخط بعض ، ومن طلب رضاهم في سخط الله تعالى سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً عليه ـــ كما ورد في الأخبار[٦] ، ودلّت عليه التّجربة.

---

(١) «ب» «د» : العبادة.

(٢) «ح» «د» : فَسَد.

(٣) «م» : فترجّح.

(٤) «ح» : المرتبة.

(٥) «ب» : تسبّب.

(٦) انظر: بحار الأنوار ٧٠ : ٤، نحو: شكى علقمة إلى الصّادق عليه السّلام من ألسنة النّاس، فقال عليه السّلام : (إنّ رضا النّاس لا يُملك ، وألسنتهم لا تُضبط ، وكيف تَسلمون ممّا لم يَسلم منه أنبياء الله ورسلُه وحُجج الله عليهم السّلام... ألم ينسبوا نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله إلى أنّه شاعر مجنون؟!... وما قالوا في الأوصياء أكثر من ذلك... إنّ الألسنة الّتي يتناول ذات الله تعالى ذكره بما لا يليق بذاته كيف تُحبس عن تناولكم بما تكرهونه؟!).

ثـمّ أي غـرض لـه في مـدحهم وإيثار ذمّ الله لأجل حمدهم، ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهول[(١)] يوم القيامة.

وأمّا الطمع بما في أيديهم: فبأن يعلم أنّ الله هو المسخّر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنّ الخلق مضطرّون له فيه، ولا رازق[(٢)] إلّا الله تعالى، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذلّ والخيبة والمقت والإهانة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنّة والمهانة، ومن اعتمد على الله وجعل همّه معه كفاه الله همّه من الدّنيا والآخرة، فكيف يترك ما عند الله لرجاء كاذب ووهم فاسد، وقد يصيب وقد يخطىء، وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته ومذلّته؟

وأمّا ذمّهم؛ فلم يحذر منه ولا يزيد ذمّهم شيئاً ما لم يوافقهم الله عليه، ولا يعجّل أجله، ولا يؤخّر رزقه، ولا يجعله من أهل النّار إن كان من أهل الجنّة، ولا يبغّضه إلى الله تعالى إن كان محموداً عند الله، ولا يزيد مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله تعالى؛ فالعباد كلّهم عَجَزَة ولا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا ضرّاً، ولا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، بل العقل والنّقل والتّجربة قد أذنت بخلاف ذلك كلّه، وأنّ المخلص أعماله لله يحبّبه الله إلى المخلوقين الصّالحين والفاسقين، بل إلى كثير من الكافرين، فتراهم يعظّمونه ويوقّرونه، ويلتمسون بركته مع ضعفه وفقره وقلّة ذات يده، وقلّة عمله[(٣)].

والمرائي يظهر الله تعالى الخلق على باطنه، وخبث نفسه، وفساد نيّته، فيمقتونه ولا يفوز بمطلبه، ويضيع تعبه، ويبطل سعيه ـ كما روي ـ أنّ رجلاً من بني إسرائيل، قال: والله لأعبدنّ الله عبادة أُذكر بها، فكان[(٤)] أوّل داخل إلى

---

(١) «د» «م»: هو.

(٢) «د»: رزّاق.

(٣) «ب»: علمه.

(٤) «م»: وكان.

المسجد[١]، وآخر خارج منه، لا يراه أحد حين الصّلاة إلّا قائماً يصلّي، وصائماً لا يفطر، ويجلس إلى حَلَقِ الذّكر، فمكث[٢] بذلك مدّة طويلة، وكان لا يمرّ بقوم إلّا قالوا: فعل الله بهذا المرائي وصنع، فأقبل على نفسه وقال: أراني في غير شيء، لأجعلنّ[٣] عملي كلّه لله، فلم يزد على عمله الّذي كان يعمل قبل ذلك إلّا أنّه تغيّرت نيّته إلى الخير، فكان ذلك الرّجل يمرّ بعد ذلك بالنّاس فيقولون: رَحِمَ الله فلاناً؛ الآن أقبل على الخير[٤].

وقد نبّه الله تعالى على ذلك في كتابه، فقال: **«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا»**[٥].

ثمّ هب أنّهم أحبّوك وأكرموك، وخفي خبثك عليهم، مع أنّ الله تعالى مطّلع على فساد نيّتك، وخبث سريرتك، فأيّ خير لك في مدح النّاس وأنت عند الله مذموم، ومن أهل النار؟ وأيّ شرّ لك في[٦] ذمّ النّاس وأنت عند الله ممدوح، ومن أهل الجنّة، وفي زمرة المقرّبين؟

ومن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبّد، والمنازل الرّفيعة عند الله تعالى استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام الحياة، مع ما فيه من الكدورات والمُنغِّصات[٧]، واجتمع همّه، وانصرف إلى الله تعالى قلبه، وتخلّص من مذمّة الرّياء ومقاساة قلوب الخَلْق، وانعطف من إخلاصه أنوار[٨] على قلبه [ينشرح بها][٩] صدره، و

---

(١) «م»: للمسجد.

(٢) «م»: فلبث.

(٣) «م»: لأُخلصنّ.

(٤) عدّة الدّاعي: ٢١٦، بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٤.

(٥) مريم: ٩٦.

(٦) «ب» «ح»: من.

(٧) «د»: المبغضات.

(٨) «ب»: نور.

(٩) «ب»: يُشرح به.

[يستأنس بها من وحشته][١] ؛ فإن لم يكتف بذلك كلّه، فليتأمّل ثلاثة أشياء:

أحدها: أنّه[٢] لو قيل لك: أنّ هناك[٣] رجلاً معه جوهر نفيس يساوي مائة ألف دينار، وهو محتاج إلى ثمنه، بل إلى بيعه عاجلاً، وإلى أضعاف ثمنه أيضاً، فحضر من يشتري منه متاعه بأضعاف ثمنه مع حاجته إلى الأضعاف أيضاً، فأبى بيعه بذلك وباعه بفلس واحد، أليس ذلك يكون خسراناً مبيناً[٤]، وغبناً[٥] فظيعاً، ودليلاً بيّناً على خسّة الهمّة، وقصور الفهم والعلم، وضعف الرّأي، ورقّة العقل، بل على السّفه المحض؟!

وهذا بعينه أبلغ من حال المرائي في عمله، بل في عبادة واحدة؛ فإنّ ما يناله العبد بعمله من الخلق من مدحه، وحطام الدّنيا بالإضافة إلى رضا ربّ العالمين، وشكره، وثواب الآخرة، ونعيم الجنّة الدّائم، المُخْلَص من شوب الكدورات، أقلّ من فلس في جنب ألف ألف دينار، بل في جنب الدّنيا وما فيها وأكثر.

وهذا هو الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشّريفة بهذه الأمور الحقيرة الدّنيّة.

ثمّ وإن كان لابدّ لك من هذه الهمّة الخسيسة، فاقصد أنت الآخرة تتبعك[٦] الدّنيا، بل اطلب الرّبّ وحده يعطك الدّارين؛ إذ هو مالكهما جميعاً، وذلك قوله تعالى: **«مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»**[٧].

---

(١) «د» «ب»: تستأنس به روحه.

(٢) «م»: أن.

(٣) «د»: هنا.

(٤) «ب» «د» «م»: عظيماً.

(٥) «ب»: عيباً.

(٦) «م»: ببيعك.

(٧) النّساء: ١٣٤.

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: (إنّ الله تعالى يعطي الدّنيا بعمل الآخرة، ولا يعطي الآخرة بعمل الدّنيا)(١).

فإذا أنت أخلصت النّيّة، وجرّدت الهمّة للآخرة، حصلت لك الدّنيا والآخرة جميعاً، وإن أنت أردت الدُّنيا، ذهبت عنك الآخرة في الوقت. وربّما لا تنال الدّنيا كما تريد، وإن نلْتَها فلا تبقى لك، بل تزول عنك قريباً، فقد خسرت الدّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ونظير هذا الشّخص بالنّسبة إلى هذا المثل من يصرف جزءاً من عمره، ونفَساً من أنفاسه الّذي يمكنه به تحصيل كنز من كنوز الجنان فيما يحصل به دانق، أو حبّة، أو درهم، أو دينار من متاع الدّنيا، ويترك ذلك الكنز الدّائم لغير ضرورة، ما هذا إلّا عين الغفلة والخسران، وخسّة الهمّة والخذلان.

وثانيها: أنّ المخلوق الّذي تعمل لأجله، وتطلب رضاه، لو علم أنّك تعمل لأجله، لأ بغضك وسخط(٢) عليك، واستهان بك، واستخفّ بك، مضافاً إلى مقت الله تعالى وإهانته وخذلانه، وما تعمله لله خالصاً يوجب رضا الفريقين، فكيف يعمل العاقل لأجل من لو علم بأنّه(٣) يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه؟! فانظر إن كنت تعقل.

وثالثها: إنّ من حصل له سعي يكتسب به رضا أعظم ملك في الدّنيا، فطلب به رضا كنّاس خسيس بين النّاس وسخط ذلك الملك، بل مع عدم سخطه، أليس ذلك دليلاً على السّفه(٤)، ورداءة الرّأي، وسوء النّظر، ويقال له: ما حاجتك إلى رضا هذا الكنّاس مع تمكّنك من رضا هذا الملك؟!

---

(١) انظر: بحار الأنوار ١٣: ٤١٢ فإنّ فيه ما يدلّ على هذا المعنى.

(٢) «د»: لسخط.

(٣) «م»: أنّه.

(٤) «م»: السَّفَه.

كذلك أيّ حاجة إلى رضا عبد مخلوق ضعيف حقير مهين مع التّمكّن من تحصيل رضا ربّ العالمين الكافي عن الكلّ! نسأل الله حسن التّوفيق. فهذا هو الدّواء العلميّ.

وأمّا الدّواء العمليّ؛ فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأ بواب دونها؛ كما تغلق الأ بواب دون الفواحش، حتّى يقنع قلبه بعلم الله تعالى، واطّلاعه على عبادته، ولا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله تعالى، وهو أمر يشقّ في ابتداء المجاهدة، لكن إذا صبر عليه مدّة بالتّكلّف، سقط عنه ثقله، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله تعالى، وما يمدّ به عباده من حسن التّوفيق، فـ«**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**»[1] فمن العبد المجاهدة، ومن الله الهداية؛ قال الله تعالى: «**وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**»[2].

وإن كان المنافي من قبيل المتأخّر عن العبادة، وهو الرّياء المتأخّر والعُجب، فقد عرفت دواء الأ وّل.

وأمّا العجب؛ فلينظر في الأسباب والآلات الّتي قوي بها على العبادة الّتي أورثته العُجب من القدرة، والعلم، والأعضاء، والرّزق الّذي أكله حتّى قوي به؛ فإنّه يجده كلّه من الله تعالى، ولولاه لم يقدر على شيء منها، ثمّ ينظر إلى نعمته عليه في إرسال الرّسل إليه، وخلق العقل له حتّى اهتدى به إلى طريق الحقّ، ثمّ ينظر في قيمة العمل الّذي عمله، فلا يجده مقابلاً لنعمة من هذه النّعم، وإنّما صار لعمله قيمة، لمّا وقع من الله تعالى موقع الرّضا والقبول، وإلّا فترى الأجير يعمل طول النّهار بدرهمين، والحارس يسهر طول اللّيل بدانقين، وكذلك أصحاب الصّناعات والحرف؛ كلّ واحد منهم يعمل في اللّيل والنّهار، فتكون قيمة كلّ ذلك دراهم معدودة؛ فإن

---

(١) الرّعد: ١١.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

صرفت الفعل إلى الله تعالى وصمت لله يوماً، قال الله: «**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**»(١).

وفي الخبر: (أعددْتُ لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(٢) فهذا يومك الّذي قيمته درهمان مع احتمال التّعب العظيم، صارت له هذه القيمة بتأخير غداء(٣) إلى عشاء، ولو قمت ليلة لله تعالى، فقد قال الله تعالى: «**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**»(٤).

فهذا الّذي قيمته درهم صارت له كلّ هذه القيمة والقدر، بل لو جعلت لله ساعة تصلّي فيها ركعتين خفيفتين، بل نَفَساً قلت فيه: لا إله إلّا الله، قال الله تعالى: «**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»(٥).

فحقّ إذن للعاقل أن يرى حقارة عمله، وقلّة مقداره من حيث هو، وأن لا يرى إلّا منّة الله عليه فيما شرّف به من قدر عمله وأعظم من جزائه، وأن يحذر في فعله أن يقع على وجه لا يصلح لله تعالى، ولا يقع منه موقع الرّضا، فيذهب عنه موقع القيمة الّتي حصلت له، ويعود إلى ما كان في الأصل من الثّمن الحقير، فقس قدر عملك في نفسه إلى ما عليك من نعمة، فهل تجده وافياً بعشر عشيره؟ وهل توفيقك للقيام بوظائف العبوديّة، وتأهيلك(٦) للخدمة الإلهيّة، إلّا نعمة بل أعظم نعمة

---

(١) الزّمر: ١٠.

(٢) عدّة الداعيّ: ٩٩، ٢٢٦، الأحاديث القدسيّة ١: ٦٧، عوالي اللّئاليّ ٤: ١٠١ حديث ١٤٨، الجواهر السّنيّة في الأحاديث القدسيّة: ٣٦٢، بحار الأنوار ٨: ٩٢.

(٣) «م»: غداة.

(٤) السّجدة: ١٧.

(٥) غافر: ٤٠.

(٦) «م»: تأهّلك.

يلزمك شكرها؛ كما أُشير إليه في خبر داود عليه السّلام حين أوحى الله إليه أن اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ، كيف أشكرك حقّ شكرك والشّكر من نعمتك تستحقّ عليه شكراً؟! فقال: يا داود، إذا عرفت أنّ ذلك منّي، فقد شكرتني(١).

وروي أنّ بعض الوعّاظ قال لبعض الخلفاء: أتراك لو مُنعت شربة من الماء عند عطشك، بم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: أتراها لو حبست عنك عند خروجها، بم كنت تشتريها؟ قال: بالنّصف الآخر، قال: فلا يغرّنّك ملك قيمته شربة ماء(٢).

ففكّر أنت كم تتناول في كلّ يوم شربة ماء هنيئة، وأكلة هنيئة، وتسيغها(٣) هنيئاً في عافية، وكم تنظر بعينك هنيئاً، وتسمع طيّباً، وتشمّ زكيّاً، وتمشي إلى ما تحبّ، وتبطش بيدك فيما تحبّ، إلى غيرك ذلك من حواسّك وأعضائك وقواك الباطنة الّتي لايطّلع على دقائقها وتصريفها إلّا الله تعالى من مجاري طعامك، وتصاريف هضمك، وتفريق فضلاتك، وتغذّيك بجيّده ممّا لو صرفت زمانك في الفكر فيه خاصّة لقضيت منه العَجب، ولو فقدت شيئاً يسيراً منه وطلب منك طبيب على أن يردّه إليك ويصلحه لك [قِبال](٤) خدمتك له سنة أو أكثر لسررت بذلك وعددته منعماً عليك، وكم تقابل هذه النّعم المتعدّدة بسنين من الخدمة، والحال أنّك لا تخدم مولاك المنعم إلّا أوقات قليلة بعبادة لو تأمّلتها وعرفت عيوبها وآفاتها لم تثق بشيء منها، ولاستحييت من فعلها.

وقد قال الله تعالى ــ وهو أصدق القائلين ــ: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا

---

(١) الكافي ٢: ٩٨، بحار الأنوار ٧١: ١٨ وفيها: أوحى الله إلى موسى عليه السّلام، عدّة الدّاعي: ٢٢٥.

(٢) عدّة الدّاعي: ٢٢٦.

(٣) «ب»: تسقها، «م»: تتسيّغها.

(٤) أضفناه لاستقامة المعنى.

تـحـصُوهَا»[١] فالنّعم عليك لا تحصى، وعملك على تقدير سلامته وقبوله قليل يُحصى[٢]، فكيف يُقابل ما لا يحصى ؟!

ثمّ إذا قابله بقيت خالياً من عمل يوجب لك المكافأة، فقصاراك الاعتراف بالتّقصير، وشرفك المراقبة لله تعالى، وتذكّر المنّة، والاعتراف بالنّعمة، والإزراء[٣] بنفسك والمقت لها، لعلّك تفوز برحمة الله تعالى، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: (من مقت نفسه دون مقت النّاس، آمنه الله من فزع يوم القيامة)[٤].

وروي أنّ عابداً عبد الله تعالى سبعين عاماً صائماً نهاره، قائماً ليله، فطلب إلى الله تعالى حاجة فلم تقض، فأقبل على نفسه وقال: من قِبَلِكِ أُتيت، لو كان عندك خير قضيت حاجتك، فأنزل الله إليه ملكاً، فقال: ياابن آدم، ساعتك الّتي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك الّتي مضت[٥].

ثمّ تأمّل بعد ذلك ثلاثة أُمور:

أحدها: لو أنّ ملكاً من ملوك الدّنيا إذا أجرى على أحد من أتباعه طعاماً وكسوة، أو دراهم أو دنانير فانية؛ فإنّه يستخدمه لأجلها بضروب الخدم آناء اللّيل و[أطراف][٦] النّهار، مع ما في ذلك من الذّلّ والصّغار، وبعضهم يقوم لذلك على رأسه، ويسهر اللّيل بأجمعه لأجله، وبعضهم يقف في خدمته يوماً بعد يوم حتّى ينقضي عمره، وبعضهم يسعى في حوائجه ومهمّاته، وبعضهم يركب الأهوال ولُجج البحار لأجله، وربّما يبدو له عدوّ[٧] فيبذل روحه الّتي لا خلف عنها لأجله، ولا

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) «ب»: محصيّ.

(٣) «ب»: الازدراء.

(٤) عدّة الدّاعي: ٢٢٧.

(٥) عدّة الدّاعي: ٢٢٧.

(٦) أضفناه لقبول السّياق.

(٧) «د»: عدوّه.

ينفعه في الآخرة بعد ذلك.

فتراهم يحتملون كلّ هذه الخدمة لأجل تلك المنفعة الخسيسة الفانية، ومع ذلك يعترفون للملك بالنّعمة ويقرّون له بالفضل عليهم والمنّة، مع أنّ تلك المنفعة في الحقيقة من الله تعالى، ولو أراد ملكهم أن ينبت لهم حبّة واحدة، أو يخلق لهم خيطاً واحداً لم يقدر على ذلك وهم يعترفون بذلك كلّه، فكيف تستكثر عملك الحقير المشوب بالآفات والنّقائص لربّك الّذي خلقك ولم تك شيئاً مذكوراً؟ ثم ربّاك وأنعم عليك من النّعم الظّاهرة والباطنة في نفسك ودينك ودنياك ما لا[1] يبلغ كنهه فهمك ولا وهمك، كما قال الله تعالى: «**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**»[2]؟.

وقد وعدت على هذا العمل القليل مع ما فيه من المعايب والآفات بالثّواب العظيم الدّائم، وضروب الكرامات، استعظام ذلك من شأن العاقل!

وثانيها: أن تتفكّر في أنّ الملك الّذي من شأنه أن يخدمه الملوك والأُمراء إذا أذن في إدخال الهدايا إليه، ووعد عليها بالعطاء العظيم، وأمر أن لا يستحيي أحد بهديّته[3] ولو كانت طاقة بقل، فدخلت عليه الأُمراء والكبراء والرؤساء والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثّمينة[4] و [الهدايا النفيسة][5]، ثمّ جاء بقّال إليه بطاقة[6] بقل، وقرويّ بسلّة عنب تساوي درهماً أو حبّة، فدخل بها إلى حضرته وزاحم بها أُولئك الأكابر بهداياهم الجليلة، فقبل الملك من الوضيع هديّته، ونظر إليها نظر القبول، وأمر له بأنفَس خلعة وكرامة تبلغ مائة ألف دينار، ألا يكون ذلك

---

(١) «م»: لم.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) «د»: لهديّته.

(٤) «م»: النّفيسة.

(٥) «م»: اللّئالىء الثّمينة.

(٦) «د» «ب» «م»: بباقة.

منه غاية الفضل والكرم؟

ثمّ لو فرض أنّ هذا الفقير نظر بخاطره إلى هديّته، واستعظم أمرها، وتعجّب بها، ونسي ذكر منّة الملك، ألا يُقال هذا مجنون مضطرب العقل، أو سفيه سيّىء الأدب، عظيم الجهل؟

وثالثها: أن تتفكّر في أنّ الملك الّذي من شأنه أن يخدمه الملوك والأُمراء، ويقوم على رأسه السّادات والعظماء، ويتولّى خدمته الحكماء، ويمشي بين يديه الأكابر والرّؤساء، إذا أذن لسوقيّ[1] أو قرويّ في الدّخول عليه والقرب منه حتّى زاحم أُولئك السّادات والأفاضل في خدمته وجعل له مقاماً في حضرته أليس يقال: لقد كثرت على هذا الحقير المنّة من الملك، وعظمت عليه النّعمة؟ فإن أخذ هذا الحقير يمنّ على الملك بتلك الخدمة الحقيرة ويستعظم ذلك مع هذه النّعمة الواصلة إليه، ويعجب بعمله أليس ينسب إلى محض السّفه[2] والجنون؟ فكيف وإلهنا الّذي له ملك السّماوات والأرض وقد دان له العالَمون، ووقف بخدمته الملائكة المقرّبون والأنبياء والمرسلون الّذين لا يحصي عددهم إلّا رب العالمين، ومنهم النّافذة في تخوم الأرض أقدامهم، والواصلة إلى العرش رؤوسهم، وهم مع ذلك مطرقون لا يرفعون رؤوسهم تعظيماً لله تعالى، ولا يفترون عن ذكر الله تعالى أبداً إلى آخر مدّتهم، فإذا أراد الله أن يميتهم رفعوا رؤوسهم وقالوا: سبحانك، ما عبدناك حقّ عبادتك.

ولا يخفى حال نبيّنا صلّى الله عليه وآله في جدّه واجتهاده في عبادة ربّه[3]، ومن بعده من أئمّته الّذي يخرج ذكر يسيره عن حدّ الاختصار، إلى نهاية

---

(١) السُّوقَة: الرَّعيّة، ومن دون الملك. مجمع البحرين ١: ٤٥٦ مادّة (سوق).

(٢) «ب» «م»: أو.

(٣) نقل في تفسير «نور الثّقلين» ٣: ٣٦٧ عن «الاحتجاج» للطّبرسيّ، قال: روي عن موسى بن جعفر عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ عليه السّلام، قال: (قال أمير المؤمنين عليه السّلام: ولقد قام رسول الله صلّى الله عليه وآله عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه، واصفرّ وجهه، يقوم ←

الإكثار، وهم مع ذلك معترفون بالتّقصير، باكون على أنفسهم، مزرون عليها.

ثـمّ إنّك ترضى من نفسك بصلاة ركعتين محشوّة من المعائب، وقد وعدت من الثّواب عليها[١] بما[٢] لا يخطر بقلب بشر، وتعجب بذلك وتستكثره، ولا ترى منّة الله عليك في ذلك؟! فما أجهَلك من إنسان، وما أسوأك من رجل، وما أسفهك من بشر!

وأمّا نحن فلو عقلنا وتيقّظنا[٣] لأعمالنا، لوجدناها إلى كفّة السّيّئات أميل منها إلى كفّة الحسنات، لشدّة الغفلة، وكثرة المعائب، وفساد القلوب، وتشويش المقاصد.

اللّهم لا تكِلْنا إلى أعمالنا، ولا تؤاخذنا بتفريطنا وإهمالنا، واشملنا بفضلك وأُنسك[٤]، وخذ بنواصي قلوبنا إلى جوار قدسك، فقديماً سترت، وعظيماً غفرت، وجزيلاً أعطيت، وجسيماً أبليت، وأنت أرحم الرّاحمين، وأكرم الأكرمين، فما قدمت عليك أيدينا[٥] إلّا صفراً من الحسنات، مملوّة بالمعاصي والسّيّئات، وجودك أوسع وأكمل من أن يضيق عمّن التجأ إليك، واعتمد بفضلك ورحمتك عليك، وأنت دللتنا على جودك، وهديتنا إلى فضلك، وأمرتنا بالدّعاء، وضمنت الإجابة، وأنت الجواد الكريم.

←

اللّيل أجمع، حتّى عوتب في ذلك، فقال الله عزّوجلّ: «طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرآنَ لِتَشْقَىٰ» بل لتسعد به....).

(١) «ب»: عليهما.

(٢) «ب» «م»: ما.

(٣) «ب»: تفطّنّا.

(٤) «ب»: أمنك.

(٥) «د»: أيادينا.

البحث الثّاني : في خصوصيّات باقي الصّلوات[١] .

بالنّسبة إلى اليوميّة ، تختصّ «الجمعة» باستحضار أنّ يومها يوم عظيم ، وعيد شريف ، خصّ الله تعالى به هذه الأمّة ، وجعله وقتاً شريفاً لعباده[٢] ، ليقرّبهم فيه من جواره ، ويبعدهم من طرده وناره ، وحثّهم فيه على الإقبال بصالح الأعمال ، وتلافي ما فرّط منهم في بقيّة الأسبوع من الإهمال ، وجعل أهمّ ما يقع فيه من طاعته ، وما يوجب الزّلفى والقرب إلى شريف حضرته ، صلاة الجمعة ، وعبّر عنها في محكم كتابه العزيز الكريم بـ«ذكر الله» الجسيم ، وخصّها من بين سائر الصّلوات الّتي هي أفضل القربات[٣] بالذّكر الخاص ، فقال سبحانه : **«يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ، فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»**[٤] .

وفي هذه الآية الشّريفة من التّنبيهات والتّأكيدات ما يتنبّه له من له حظّ من المعاني لا يليق بسطه بهذه الرّسالة .

ومن أهمّ رمزها هنا التّعبير عن الصّلاة بـ«ذكر الله» ونبّه بذلك على أنّ الغرض الأقصى من الصّلاة ليس هو مجرّد الحركات والسّكنات والرّكوع والسّجود ، بل ذكر الله بالقلب ، وإحضار عظمته بالبال ، فإنّ هذا وأشباهه هو السّرّ في كون الصّلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر في قوله تعالى : **«إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ»**[٥] إذ كان سببهما القوّة النّزوعيّة اذا خرجت عن حكم العقل .

---

(١) «ح» «د» : الصّلاة.

(٢) «ح» «م» : لعبادته.

(٣) «د» : المقرّبات.

(٤) الجمعة : ٩.

(٥) العنكبوت : ٤٥.

وهذا كلّه إنّما يتمّ مع التّوجّه التّام إلى الله تعالى، وملاحظة جلاله الّذي هو الذّكر الأكبر[١] والكثير على ما ورد في بعض تفسيراته، فضلاً عن أن يكون ذكراً مطلقاً.

وإذا كان الاستعداد بهذه المثابة، لا جرم، وجب الاهتمام به زيادة على غيرها من الصّلوات، والتّهيّؤ والاستعداد للقاء الله تعالى، والوقوف بين يديه في الوقت الشّريف والنّوع الشّريف من العبادة[٢].

واحضر[٣] ببالك أن لو أمرك ملك عظيم من ملوك الدّنيا بالمثول في حضرته والفوز بمخاطبته في وقت معيّن[٤]، أما كنت تتأهّب له بتمام الاستعداد والتّهيئة والسّكينة والوقار والتّنظيف والتّطيّب وغير ذلك ممّا[٥] يليق بحال الملك؟.

ومن هنا جاء استحباب الغسل يوم الجمعة، والتّنظيف، والتّطيّب، والتّعمّم، وحلق الرّأس، وقصّ الشّارب والأظفار، وغير ذلك من السّنن، فبادر عند دخول الجمعة إلى ذلك بقلب مقبل صاف، وعمل مخلص، وقصد متقرّب، ونيّة خالصة، كما تعمل ذلك في لقاء ملك الدّنيا إن لم تعظم همّتك عن ذلك، ولا تقصد بهذه الوظائف حظّك من الرّفاهيّة، ومطلب نفسك من الطّيب والزّينة فتخسر صفقتك، وتظهر بعد ذلك حسرتك.

وكلّما أمكنك تكثير المطالب الّتي يترتّب عليها الثّواب بعملك[٦]، فاقصدها يضاعف ثواب عملك بسبب قصدها، فأنوِ بالغسل يوم الجمعة سنّة الجمعة

---

(١) «م» زيادة: والتّكبير.

(٢) «ح»: العبادات.

(٣) «د»: اخطر.

(٤) «ب» «د»: معتبر.

(٥) «م»: بما.

(٦) «ب»: لعملك.

والتّوبة ودخول المسجد، وبالثّياب الحسنة والطّيب سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وتعظيم المسجد، واحترام بيت الله تعالى، فلا يحب[١] أن تدخله زائراً له إلّا طيّب الرّائحة.

وأن يقصد به أيضاً ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته، ويقصد به دفع الرّوائح الكريهة عن نفسه حسماً لباب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالرّوائح الكريهة، فيعصون الله بسببه، فقد قيل: إنّ[٢] من تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية؛ كما أشار إليه تعالى بقوله: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»[٣].

وإذا حضرت الصّلاة[٤]، فاحضر[٥] قلبك فهم مواقع الموعظة، واستعدّ لتلقّي الأوامر والنّواهي على وجهها، فإنّ ذلك هو الغرض الأقصى من الخطبة والخطيب والمنبر، واستماع[٦] النّاس وتحريم الكلام خلالها، ووجوب الإصغاء إليها، فاعط كلّ ذي حقّ من ذلك حقّه عسى أن تكون من المكتوبين[٧] في ديوان الملائكة المقرّبين؛ الّذين يكتبون المصلّين في ذلك اليوم الشّريف، ويعرضونهم على الحضرة الإلهيّة، ويخلعون عليهم خلع الأنوار القدسيّة، فقد روي: (أنّ الملائكة تقف على أبواب المساجد وبأيديهم قراطيس الذّهب وأقلام الفضّة، يكتبون الأوّل فالأوّل، وأنّ الجنان لتزخرف وتزيّن، وأنّ النّاس يتسابقون إليها على قدر سبقهم إلى

---

(١) «ب»: يجب.

(٢) «م»: إنّه.

(٣) الانعام: ١٠٨.

(٤) «ب» «م»: للصّلاة.

(٥) «م»: فاستحضر.

(٦) «ب» «م»: اسماع.

(٧) «ب»: المكرمين.

الصّلاة، ولا تزال الملائكة يكتبون الدّاخل إلى أن يخرج الإمام، فإذا خرج طويت الصّحف، ورفعت الأقلام، واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون[١] الذّكر، وأنّ النّاس في المنازل والحظوة على قدر بكورهم إلى الجمعة)[٢].

فإذا أحضرت هذا ببالك وأنّ الملائكة يستمعون وهم حولك، والله سبحانه ناظر إليك، لزمك ارتداء الهيبة، وادّراع السّكينة، وتجلبب الخشية، وعند ذلك تستحقّ أن تفاض عليك الرّحمة، وتحفّك البركة، وتصير صلاتك مقبولة، ودعوتك مسموعة مستجابة.

وأكثر في ذلك اليوم من الذّكر، والدّعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن، والصّلاة على النّبيّ وآله صلّى الله عليه وآله، والصّدقة، فإنّ اليوم شريف، والفضل فائض، والجود تام، والرّحمة واسعة، فإذا كان المحلّ قابلاً تمّت السّعادة، وحصلت الإرادة وزيادة.

وتذكّر أنّ في يوم الجمعة ساعة لا يردّ الله فيها دعوة مؤمن[٣]؛ فاجتهد أن تصادفها داعياً أو مستغفراً أو ذاكراً، فإنّ الله يعطي الذّاكر فوق ما يعطي السّائل.

وإن أمكنك الإقامة في المسجد مجموع ذلك اليوم، فافعل، فإن لم يمكن فإلى العصر، وكن حسن المراقبة، مجتمع الهمّة، عسى أن تظفر بتلك السّاعة، فقد قيل: إنّها مبهمة في جميع ذلك اليوم، نظراً من الله تعالى لخلقه، ليحافظوا عليها، كما

---

(١) «م»: يسمعون.

(٢) الكافي ٣: ٤١٣ حديث ٢، الفقيه ١: ٢٧٤ حديث ١٢٥٨، الوسائل ٥: ٤٢ الباب ٢٧ من أبواب صلاة الجمعة وآدابها، الحديث ١.

(٣) روي عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: (إنّ يوم الجمعة سيّد الأيّام وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه ساعة لا يسأل الله عزّوجلّ فيها أحد شيئاً إلاّ أعطاه ما لم يسأل حراماً). الدّعوات: ٣٥ عدّة الدّاعي: ٣٨، الوسائل ٥: ٦٧ الباب ٤٠ من أبواب صلاة الجمعة وآدابها، الحديث ٢٢ وفيها هذا الحديث عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله.

أخفى ليلة القدر في جميع السّنة، ليحافظوا عليها(١).

وروي أنّها ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تستوي الصّفوف بالنّاس(٢).

وساعة أُخرى من آخر النّهار إلى غروب الشّمس(٣).

واجعل هذا اليوم خاصّة من الأُسبوع لآخرتك، فعسى(٤) أن يكون كفّارة واستدراكاً لبقيّة الأُسبوع.

ويكفيك في الاهتمام بالجمعة ووظائفها أنّ الله سبحانه جعلها أفضل أعمال بني آدم بعد الإيمان ــ على ما نطقت به الأخبار(٥)، وصرّح به العلماء الأخيار ــ حيث دلّا على أنّ الواجب أفضل من النّدب، وأنّ الصّلاة أفضل من غيرها من الواجبات، وأنّ اليوميّة أفضل من غيرها من الصّلوات، وأنّ الصّلاة الوسطى من بينها أفضل الخمس، والمختار أنّها الظّهر، والجمعة أولى من الظّهر، فتكون أفضل منها لو أمكن تصوّر فضلها(٦)، وحينئذ، فتكون أفضل الأعمال.

وهذا بيان واضح يوجب تمام الاهتمام بشأنها، وأبلغ الخطر في التّهاون بها لمن تدبّر، وقد نبّه على جميع ذلك قوله تعالى بعد الأمر بها: «**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**»(٧).

وقد وردت الأوامر بقراءة سورتها وسورة المنافقين فيها، ليتكرّر سماع الحثّ عليها فيهما(٨)، وقد قال في سورة المنافقين بعد أن سمّاها في سورتها «ذكراً»: «**يَا**

---

(١) إحياء علوم الدّين ١: ٣٣٥.

(٢) إحياء علوم الدّين ١: ٣٣٥، الدّعوات: ٣٦، عدّة الدّاعي: ٣٨.

(٣) الدّعوات: ٣٦، إحياء علوم الدّين ١: ٣٣٥.

(٤) «د» «م»: فعساه.

(٥) انظر: الوسائل ٥: ٦٢ الباب ٤٠ من أبواب صلاة الجمعة وآدابها، فإنّ فيه مايدلّ على هذا المعنى.

(٦) «ب» «د» «م»: فضل لها.

(٧) الجمعة: ٩.

(٨) انظر: الكافي ٣: ٤٢١ حديث ١، وص ٤٢٥ حديث ١، ٢، ٥، ٧، التّهذيب ٣: ٢٤١ حديث ٦٤٨، ٦٥٥، الوسائل ٥: ٣٨ الباب ٢٥ من أبواب صلاة الجمعة وآدابها، الحديث ٢.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ»[(١)].

فكرّر هذه الدّقائق على فكرك، عسى أن تكون من المفلحين.

وأمّا العيد: فاحضر في قلبك أنّها في يوم قسمة الجوائز، وتفرقة الرّحمة، وإفاضة المواهب على من قُبِلَ صومُه، وقام بوظائفه، فأكثِر من الخشوع في صلاتك، والابتهال إلى الله تعالى فيها، وقبلها، و بعدها في قبول أعمالك، والعفو عن تقصيرك.

واستشعر الحياء والخجلة من حيرة الرّدّ، وخذلان الطّرد، فليس ذلك اليوم بِعيد مَن لَبِسَ الجديد، وإنّما هو عيد مَن أمِنَ من الوعيد، وسَلِمَ من النّقاش والتّهديد، واستحقّ بصالح أعماله المزيد.

واستقبله[(٢)] بما استقبلت به يوم الجمعة من الوظائف، والتّنظيف، والتّطيّب وغيره من أسباب التّهيّؤ[(٣)] والإقبال بالقلب على ربّك، والوقوف بين يديه، عسى أن تصلح للمناجاة والحظوة لديه، فإنّه مع ذلك يوم شريف، وزمان منيف، [يقبل الله][(٤)] فيه الأعمال، وتستجاب فيه الدّعوات، فلا تجعل فرحك فيه بما لم تخلق لأجله، ولم يجعل عيداً بسببه من المأكل والمشرب واللّباس وغير ذلك من متاع الدّنيا البائرة، فإنّما هو عيد لكثرة عوائد الله تعالى فيه على من عامله بمتاجر[(٥)] الآخرة.

وأمّا الآيات: فاستحضر عندها أهوال الآخرة، وزلازلها، وتكوير الشّمس

---

(١) المنافقون: ٩.

(٢) «د»: فاستقبله.

(٣) «م»: التّهيئة.

(٤) «ب» «م»: تُقبل.

(٥) «ح»: بمتاجرة.

والقمر، وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، والتجاءهم، واجتماعهم في تلك العرصة، وخوفهم من الأخذ والنّكال، والعقوبة والاستئصال(١).

فاكثر من الدّعاء والابتهال، بمزيد الخشوع والخضوع، والخوف والوجل في النّجاة من تلك الشّدائد، وردّ النّور بعد الظّلمة والمسامحة إلى الهفوة والزّلّة(٢)، وتب إلى الله تعالى من جميع ذنوبك، وأحسن التّوبة عسى أن ينظر إليك وأنت منكسر النّفس، مطرق الرّأس، مستح(٣) من التّقصير، فيقبل توبتك، ويسامح هفوتك؛ فإنَّه يقبل القلوب المنكسرة، ويحبّ النّفوس الخاشعة، والأعناق الخاضعة، والتّململ من ثقل الأوزار، والحذر من منقلب الأضرار(٤).

وأمّا صلاة الطّواف: فاستحضر عندها جلالة البيت لجلالة(٥) ربّ البيت، واعلم أنّك بمنزلة الواقف في حضرة الملك المطلق، والحاكم المحقّق، فإنّه(٦) وإن كان في جميع أحوالك مطّلع على سريرتك، محيط بباطنك وظاهرك، لكنّ الحال في ذلك الموضع أقوى، والمراقبة فيه أتمّ وأولى، والغفلة ثَمّ(٧) أصعب وأدهى، وأين(٨) المقصّر في تعظيم الملك بين يديه ولدى كرسيّه [وبين النّائي](٩) عنه والبعيد منه؟ وإن كان عمله(١٠) شاملاً للجميع، ومحيطاً بالكلّ، [فليزد ذلك](١١) في خشوعك

---

(١) استأصَلَ الشّيءَ: إذا قطعه من أصله. مجمع البَحرين ١: ٧٩ مادّة (أصل).

(٢) «ح» «م»: الذّلّة.

(٣) «م»: مستجير.

(٤) «ب»: الأخبار.

(٥) «ب»: بجلالة.

(٦) «ح» «د» «م»: وانّه.

(٧) ثَمّ: اسم يُشار به إلى المكان البعيد؛ بمعنى: هناك. مجمع البحرين ١: ٣٢٤ مادّة (ثمم).

(٨) «ب»: ليس.

(٩) «ب»: كالنّائي.

(١٠) «ح» «د» «م»: علمه.

(١١) «ح» «د» «م»: فلتزد بذلك.

وإقبالك ولتحذر بسبب ذلك من إعراضك وإهمالك.

ومن ثمّ كان الذّنب في تلك البقاع الشّريفة مضاعفاً، والحسنة فيها أيضاً مضاعفة.

وتفكّر فيمن سبق من الأنبياء، والمقرّبين، والأولياء والصّالحين، فترى آثارهم وقربهم، وما أورثهم عملهم وحبّهم من السّعادة المخلّدة والنّعمة المؤبّدة المجدّدة، على مرّ الدّهور المطّردة[١] على كلّ العصور.

وتأسّ بهم في الأعمال، وكمال الإقبال، وليكن ذلك ونظائره [مقدّمة للصّلاة][٢] لا مقارناً، فإنّ وظيفة الصّلاة الإقبال بها خاصّة، وترقّ من هذه المدارج إلى غيرها من شريف المعارج.

وأمّا صلاة الجنازة: فاحضر عند مشاهدتها ووضعها بين يديك ما قد خلّفته من الأهل والأولاد، وتركته من الأموال، وقدمت على الله تعالى صفر اليد من الجميع، لم يصحبها إلّا الأعمال الصّالحة، وما تاجرته من أعمال الآخرة الرّابحة.

وتأمّل بهجته كيف قد ذهبت، وجلدته كيف قد تحوّلت؟ وعن قريب يمحو التّراب صورته، وتزيل الأرض بهجته، وما قد حصل له من يتم أولاده[٣]، وترمّل[٤] نسائه، وتضيّع[٥] أمواله، وخلوّ مسجده ومجلسه، وانقطاع آثاره بعد طول أمله، وكثرة حيله، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وغفلته عن الدّخول في هذا التّراب، والقدوم على ما سطر[٦] عليه في الكتاب، وركونه إلى القوّة والشّباب، واشتغاله عمّا

---

(١) «ح» «ب»: مطردة.

(٢) «ب»: من مقدّمة الصّلاة.

(٣) «ب»: الأولاد.

(٤) «ب»: رمل.

(٥) «ب»: تضييع.

(٦) «ح»: سُتر.

بين يديه من الموت الذّريع، والهلاك السّريع، وكيف كان يتردّد ويشيّع غيره من الأموات، والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد فسد لسانه، وكيف كان يضحك وقد تغيّرت[١] أسنانه، وكيف كان يدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلّا شهر أو أقلّ وهو غافل عمّا يراد به، حتّى جاءه[٢] الموت فجأة[٣] في وقت لم يحتسبه[٤]، فقرع سمعه نداء الجبّار؛ إمّا بالجنّة أو النّار[٥].

ولينظر في نفسه أنّه الآن مثله في غفلته، وستكون عاقبته كعاقبته، فلينهض حينئذ إلى الاستعداد، وليشتغل بإكثار الزّاد؛ فإنّ المسافة بعيدة، والعقبة كؤود[٦]، والخطر شديد، والنّدامة بعد الموت غير نافعة.

فهذا الفكر[٧] وأمثاله يحصّل قصر الأمل، والاستعداد لصالح[٨] العمل، ومحلّه خارج عن الصّلاة ــ كما مرّ.

وأمّا صلاة النّذر والعهد ونحوهما؛ فليستشعر قبولها، والرّغبة في القيام بها، والاهتمام بشأنها وفاءً بعهد[٩] الله، وامتثالاً لأمره، ولا يتبرّم بها توهّماً أنّها ليست واجبة بالأصالة، فقد لحقت بمثلها في العظمة والجلالة، وليمثّل[١٠] في نفسه أنّه لو

---

(١) «ب»: نثرت.

(٢) «ب» «م»: جاء.

(٣) «د» «م»: فُجاءةً.

(٤) «ب» «م»: يحسبه.

(٥) «م»: بالنّار.

(٦) «ب»: كؤودة.

(٧) «ب»: التفكّر.

(٨) «ب» «د» «م»: بصالح.

(٩) «د»: لعهد.

(١٠) «ح»: ليتمثّل.

عاهد ملكاً من ملوك الدّنيا على عمل من الأعمال بحيث يكون فعله له بمرأى منه ومسمع ، كيف يكون إقباله على عمله ، واجتهاده في إصلاحه ، واتقانه ، وامتلاء قلبه منه ، ومراقبته لنظر الملك بمجرّد الوعد ، فضلاً عن توكيده بالعهد .

فلا تجعل[١] نظر الله سبحانه دون نظر عبيده ، فإنّ ذلك عنوان النّفاق ، وأُنموذج الشّرك .

وهكذا يلاحظ وظيفة كلّ صلاة بحسبها ، ويقوم بمرتبتها[٢] وآدابها ، ولا يقتصر على ما بيّنّاه من الوظائف ، بل يترقّى بنظره إلى ما يفتح الله تعالى عليه من المعارف ، فإنّ أبواب الفيض مفتوحة ، وأنوار الجود هابطة مبذولة ، واصلة إلى النّفوس الإنسانيّة على قدر استعدادها .

وفّقنا الله تعالى وإيّاكم لتلقّي الأسرار، وأدرجنا في عداد عباده الأبرار، وأخذ بنواصينا إلى رضاه ورحمته ، وعاملنا بعفوه وكرمه ومغفرته ، واستعمَلَنا بما علّمناه ، وأشركنا في ثواب من أفدناه ، فإنّ ذلك منه ، وبه ، وله ، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل.

وها هنا نقطع الكلام في هذه الرّسالة ، حامدين لله تعالى على كلّ حالة[٣] ، وفرغ منها مؤلّفها العبد المفتقر[٤] إلى عفو الله تعالى ، وكرمه ، ورحمته : زين الدّين بن عليّ بن أحمد الشّامي العامليّ «عامله الله تعالى بفضله»[٥] يوم السّبت تاسع شهر ذي الحجّة الحرام ، وهو اليوم المبارك يوم عرفة ، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة ، حامداً مصلّياً مسلّماً مستغفراً من ذنوبه[٦] .

---

(١) «ب» : يجعل.

(٢) «ح» : بمزيّتها.

(٣) «ب» «د» «م» : حال.

(٤) «م» : الفقير.

(٥) «ب» «م» : بلطفه.

(٦) وجاء في آخر نسخة «ب» : وكتب بيده الفانية الجانية، فقير رحمة الله الغنيّ : عليّ بن زين الدّين بن محمّد بن الحسن بن المصنّف «قدس الله أرواحهم».

الفهارس العامّة

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث والروايات الشريفة .
- فهرس الأحاديث القدسيّة .
- فهرس الحكايات والأقوال .
- فهرس الأمثال .
- فهرس أعلام الكتاب .
- مصادر تحقيق الكتاب .
- فهرس موضوعات الكتاب .

فهرس الآيات القرآنيّة

«حرف الألف»

«حرف الباء»

«حرف التّاء»

«حرف الذّال»

«حرف الرّاء»

«حرف العين»

«حرف الفاء»

«حرف القاف»

«حرف الياء»

فهرس الأحاديث والرّوايات الشّريفة

«حرف الألف»

«حرف التّاء»

«حرف الثّاء»

«حرف الجيم»

«حرف الحاء»

«حرف الدّال»

«حرف الرّاء»

«حرف السّين»

«حرف الصّاد»

«حرف العين»

«حرف النّون»

«حرف الواو»

«حرف الياء»

فهرس الأحاديث القدسيّة

«حرف الألف»

«حرف العين»

«حرف القاف»

«حرف اللاّم»

«حرف الميم»

«حرف الياء»

فهرس الحكايات والأقوال

فهرس الأمثال

«حرف الألف»

«حرف الرّاء»

فهرس أعلام الكتاب

«حرف الألف»

«حرف الباء»

«حرف الحاء»

«حرف الدّال»

«حرف الرّاء»

«حرف الزّاء»

«حرف السّين»

«حرف العين»

«حرف الفاء»

«حرف الميم»

«حرف النّون»

مصادر تحقيق الكتاب

«حرف الألف»

الأحاديث القدسيّة — دار الكتب العلميّة

الاحتجاج — للطّبرسيّ

إحياء علوم الدّين — للغزاليّ

الاختصاص — للشّيخ المفيد

إرشاد العباد إلى سبيل الرّشاد — للمعبري المليباريّ

أُسد الغابة — لابن الأثير

الاصابة في تمييز الصّحابة — لابن حجر

أعيان الشّيعة — للسّيد محسن الأمين

أمالي الصّدوق — للشيخ الصّدوق

أمل الآمل — للشّيخ الحرّ العامليّ

«حرف الباء»

بحار الأنوار — للمجلسيّ

«حرف التّاء»

تحف العقول — لابن شعبة الحرّانيّ

تذكرة الحفّاظ — للذّهبيّ

تنقيح المقال — للمامقانيّ

تهذيب الأحكام — للشّيخ الطّوسيّ

«حرف الثّاء»

ثواب الأعمال — للشّيخ الصّدوق

«حرف الجيم»

جامع الرّواة — للأردبيلي

جامع المقاصد — للمحقق الكركيّ

الجواهر السّنيّة في الأحاديث القدسيّة — للحرّ العامليّ

«حرف الخاء»

الخصال — للشّيخ الصّدوق

«حرف الدّال»

الدّعوات — لقطب الدّين الرّاونديّ

الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة — للطّهرانيّ

ذكرى الشّيعة — للشهيد الأوّل

«حرف الرّاء»

رجال الطّوسيّ — للشّيخ الطّوسيّ

رجال العلاّمة — للعلامة الحلّيّ

رجال الكشّيّ — للكشّيّ

رجال النّجاشيّ — للنّجاشيّ

رسالة ابن العوديّ — لابن العوديّ

روح الصّلاة في الإسلام — لعفيف عبد الفتّاح طبّارة

«حرف السّين»

سفينة البحار — للشّيخ عبّاس القمّي

سنن ابن ماجة — لابن ماجة القزوينيّ

سنن أبي داود — لابي داود السّجستانيّ

سنن البيهقيّ — للبيهقيّ

سنن الترمذيّ — لأبي عيسى التّرمذيّ

سنن الدّارميّ — للدّارميّ

سنن النّسائيّ — للنّسائي

«حرف الشّين»

شرح نهج البلاغة — لابن أبي الحديد

شهداء الفضيلة — للعلاّمة الأمينيّ

«حرف الصّاد»

صحيح البخاريّ — للبخاريّ
صحيح مسلم — لمسلم بن الحجّاج

«حرف العين»

عدّة الدّاعيّ — لابن فهد الحلّي
علل الشّرائع — للشّيخ الصّدوق
عوالي اللّئالىء — لا بن جمهور الإحسائيّ
عيون أخبار الرّضا — للشّيخ الصّدوق

«حرف الفاء»

الفهرست — للشّيخ الطّوسيّ
الفهرست — لابن النّديم
فيض القدير — للمنّاويّ

«حرف القاف»

القرآن الكريم

«حرف الكاف»

الكافي — للكُلينيّ

«حرف اللاّم»

لسان العرب — لابن منظور

«حرف الميم»

المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء — للفيض الكاشانيّ
مجمع البحرين ومطلع النيّرين — للطّريحيّ
مجمع البيان في تفسير القرآن — للطّبرسيّ
مجمع الزّوائد — للهيثميّ
المحاسن — للبرقيّ
مرآة العقول — للمجلسيّ
المستدرك — للحاكم النّيسابوريّ

مستدرك الوسائل	للمحدّث النّوري
مسند أحمد بن حنبل	لأحمد بن حنبل
مصباح الشّريعة	للگيلانيّ
معاني الأخبار	للشّيخ الصّدوق
معجم رجال الحديث	للسّيّد الخوئي
مقدّمة اللّمعة الدّمشقيّة	للآصفيّ
مقدّمة كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة	للشّهيد الثّاني
منتهى المطلب	للعلاّمة الحليّ
من لا يحضره الفقيه	للشّيخ الصّدوق
ميزان الحكمة	للشّيخ محمّدي ري شهري

«حرف النّون»

النّوادر	لقطب الدّين الرّاونديّ
نور الثّقلين	للحويزيّ
نهج البلاغة [صبحي الصّالح]	للإمام أمير المؤمنين (ع)
نهج الفصاحة	لأ بي القاسم پاينده

«حرف الواو»

وسائل الشّيعة	للحرّ العامليّ

فهرس موضوعات الكتاب

مقدّمة المحقّق